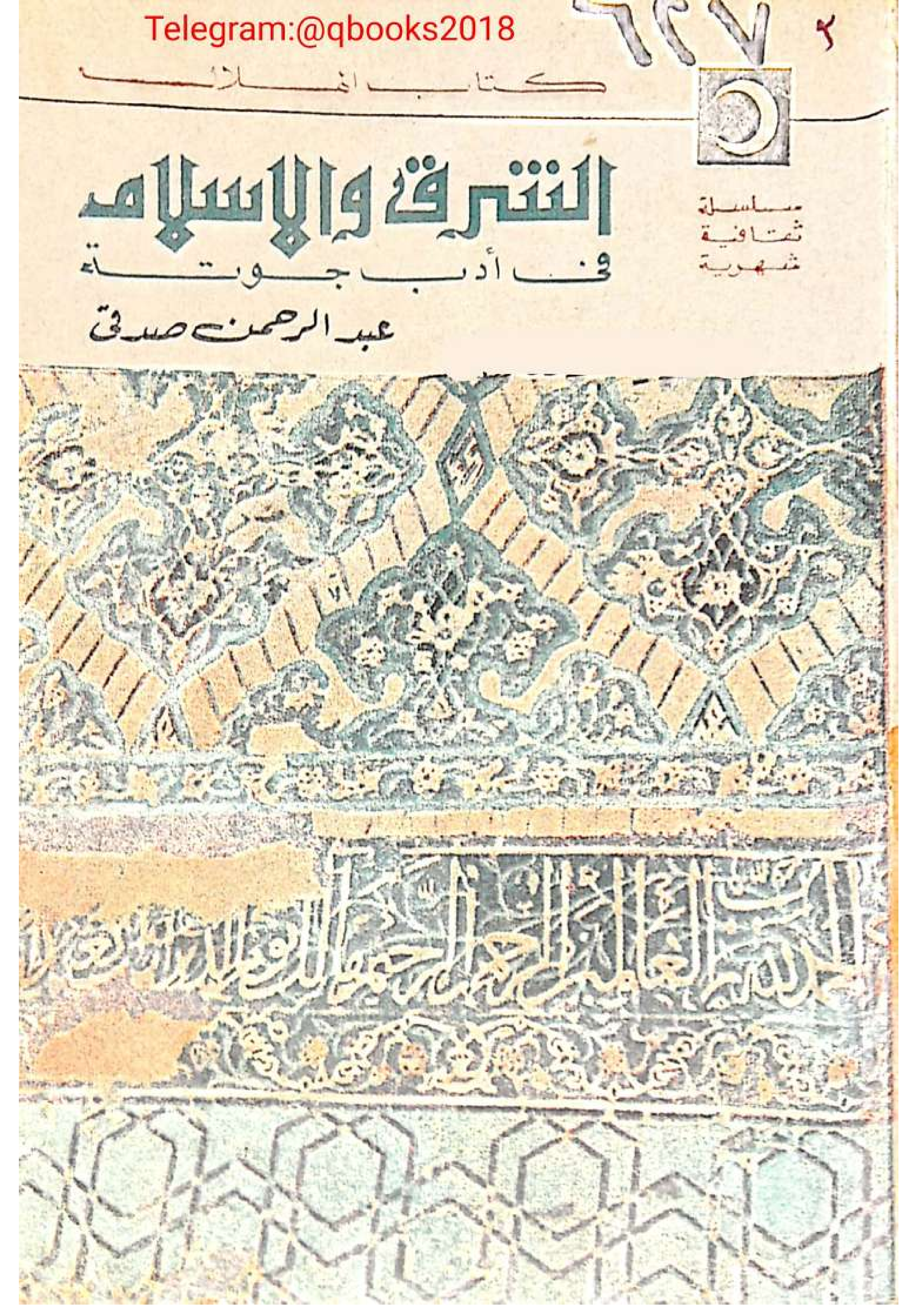

كتاب الهلال
سلسلة ثقافية شهرية
الشرق والإسلام
في أدب جوته
عبد الرحمن صدقي

عبد الرحمن صدقي

الشرق والإسلام

في أدب جوته

بحوثه - قصصه - مسرحياته - أشعاره ..

دار الهلال

مقدمة

لا يزال حتى اليوم مقررا فى الاذهان ، ومرددا على كل لسان ، ذلك البيت المقتضب للشاعر « رديارد كبلنج » :
(الشرق شرق ، والغرب غرب ، وهيهات يلتقيان)

على حين ان القليل من التقصى فى دراسـة التاريخ المقارن ، وسير الحضارات ، ونشأة العقائد والافكار ، مع التماس النزاهة فى البحث والعلو عن الاغراض ، كفيل بالتخفيف من تعصب كل جنس لجنسه ، وادعائه الفضل كله لنفسه

ولا شك ان طبيعة الانسان واحدة فى جملة تركيبها ، وقرارة نوازعها . والمطالع لتاريخ الانسانية من قـديم يعجب لها كيف تحلم منذ الأزل نفس الاحلام ، وتعانى من نقائضها نفس الآلام . ويرى كيف ان كل حضارة من الحضارات قبلنا ، قد عرض لها مع اتساع الرقعة واشتباك المصالح ، مثل ما يعرض لنا من مشكلات ،

وكيف ان الفكر البشرى بالأمس البعيد كان يشغله فهم ما نعالج اليوم فهمه من الاسرار والمعميات ، وان الاولين على قصور عدتهم قد الموا بأمهات المسائل كلها ، ولمسوا على وجه من الوجوه اطرافا من فروعها . وهذا ما دعا الى قول القائل : « ما ترك الأول للآخر ؟ »

والحق انه ما من مشكلة اجتماعية ، او ازمة نفسية ، او مطلب فكرى ، الا واصوله عريقة ضاربة فى القدم . ومن ثمة ما نشهده من حرص على دراسة الماضى ، وما لا يزال ملحوظا فى عصر كل نهضة من مراجعة القديم ، والتثبت منه عند كل تجديد حقيقى قويم

ومن هذا القبيل ما نجده فى الحين بعد الحين من اقبال البعض ، من قادة الفكر ، واعلامه فى الغرب ، على دراسة الحضارات الاولى فى الشرق

***

بيد اننا مع ذلك نلاحظ آسفين ، ان هذا البعض ـ قليلا او غير قليل ـ من أبناء الغرب الذين كتبوا عن الشرق ، هم فى الغالب الأعم من الكاتبين المتخصصين ، الذين لا يقــرأ لهم غير أهل التخصص من أمثالهم . ويأتى فى مقدمة هؤلاء الكاتبين ، جهابذة العلماء الذين يتسمون بالمستشرقين

نعم ، ان هنالك غير هؤلاء ، بعض المؤرخين والادباء وكتاب القصة ممن تشيع مؤلفاتهم بين جمهور القراء ، أمثال جوستاف ليبون الفرنسى Gustav Le Bon، وكارليل الاسـكتلندى Carlyle وواشـنطن ارفنج الامريكى Washington Irving وبلاسـكو ايبانيز الاسبانى Blasco Ibanez وغيرهم من المحدثين ، الذين احسنوا الشهادة للاسلام والعرب

ولكن حديث هؤلاء اجمعين لا يبلغ فى خطر الشأن والتأثير ، ما سيتناوله الحديث فى كتابنا الصغير ، لانه حديث على لسان علم من ثلاثة أعلام ، يعدهم اهل الغرب قمم الادب ، وهم على حسب الترتيب الزمنى : دانتى الايطالى نابغة العصور الوسطى ، وشكسبير الانجليزى عبقرى النهضة ، وجوته الالمانى الذى فيه التقى الغرب والشرق والحكيم والشاعر

فأما الشاعر الايطالى دانتى ، فهو ـ كما هو معلوم ـ صاحب تلك الملحمة الشعرية ، التى اسماها الكوميديا الالهية ، وسمح فيها لخياله ان يتمثل الجحيم ـ كما فعل شاعرنا العربى أبو العلاء المعرى ـ متوغلا فى دركات جهنم الى أسفل سافلين ، واصفا لأهوالها دركا دركا ، معددا ما يلقاه فيها أهل الضلال على أيدى الزبانية ، من انواع العذاب والنكال . فاذا انتهى بالشاعر المطاف ، ارتقى من هذه الهاوية الى الاعراف ، القائمة بين الجحيم والنعيم حيث يقوم المطهر . وأخيرا يسبح خيال الشاعر الى السماء ، متأثرا بما ترجم فى عصره الى اللغة اللاتينية من قصة الاسراء الاسلامية ، دون الاشارة اليها على لسانه أو على ألسنة الشارحين ، حتى كشفت عن ذلك أخيرا دراسات الباحثين المتخصصين من علماء الادب المقارن المحدثين

ولقد تعرض الشاعر المسيحى الايطالى ، فيمن تعرض لهم فى ملحمته ـ تعرضا غير كريم الى نبى الاسلام محمد عليه الصلاة والسلام . ونحن اذا ذكرنا ما كانت عليه الكنيسة فى القرون الوسطى من شدة التعصب الدينى ، لم نعجب من الموقف الذى وقفه من نبى الاسلام عليه الصلاة والسلام ، شاعر القرون الوسطى المسيحى ، وخاصة اذا ذكرنا انه نظم ملحمته فى جو تتجاوب فيه

أصداء الدعاية الكنسية ، وتدوى فيه جلجلة المعارك الدموية فى الحروب المسماة بالصليبية بين المسيحيين والمسلمين ، حتى كان من أثر ذلك أنه عرض فى ملحمته صلاح الدين بطل معركة حطين ، فكان أكثر تردها لما اشتهر به صلاح الدين فى ذلك الحين ، من مواقف كريمة ، مع خصمه ريتشارد قلب الأسد بطل الصليبيين

فاذا نحن تركنا القرون الوسطى الى عصر النهضة الاوروبية فى القرن السادس عشر ، حيث ازدهر المسرح الانجليزى وظهر على سائر المسارح تفوقه وسبقه ، فاننا واجدون شكسبير ، سيد المسرح العالمى ، لم يتعرض فى مسرحياته — على كثرتها وتنوع موضوعاتها — بشىء يستحق الذكر عن نبى الاسلام العربى

وأخيرا فى التاريخ المعاصر ، وعلى وجه التحديد فى القرن الثامن عشر فى شطره الآخر ، نلتقى بالعلم الاخير من القمم الثلاث للادب الغربى : « يوهان ولفجانج جوته Johann Wolfgang von Goethe كبير شعراء الالمان . فاذا هو على العكس من سابقيه لم تفته العناية بكل ما هو شرقى . فلقد عكف منذ صباه ، حتى آخر أيامه ، على دراسة تاريخ الشرق وآدابه ، فى شتى ألوانه وعلى اختلاف أوطانه . وقد تناول العرب فى جاهليتهم ، كما تناول الإسلام وشخصية محمد عليه السلام فى الكثير من مؤلفاته . فنحن بوجه عام نلقى الشرق والاسلام فى بحوثه ، وفى أدبه القصصى ، وفى أدبه المسرحى ، وفى أناشيده وأشعار دواوينه

وهذه الكتابات هى مدار حديثنا فى هذا الكتاب



جوته
كبير أدباء الألمان وشاعرهم الأعظم

جوته الشرقى

فى أواخر القرن الثامن عشر من الميلاد ، فى الصميم من بلاد الشمال ، وتحت سمائه الحالمة ذات الغيوم ، وفى ظلال أشجاره الوارفة من الحور والبلوط ، ظهر شاعر فحل من شعراء الدنيا العظام ، هو : « يوهان ولفجانج جوته » كبير أدباء الالمان وشاعرهم الاعظم

وجوته رجل نادر المثال ، لم ينحصر فى نطاق ، ولم يستأثر به أسلوب ، ولم ينذر نفسه لمذهب ، ولم يكظه لون من الوان الحياة ، بل عاش منهوم الحس ظاهره وباطنه ، يستوعب كل ما صادفه ، ويضيف الى حياته كل ما أمكن اضافته ، كأن همه أن يتحقق فى شخصه الانسان كله ، بجملته وبمعناه الأعم المطلق . وهذا النزوع الى استيعاب الانسانية كان حافز حياته الطويلة من أولها الى آخرها . فاجتمع فيه الشاعر الشادى ، والعالم الطبيعى ، والمفكر ، والفيلسوف . واقتسم

تآليفه الثائر ، والمحافظ ، والصوفى . ولم يكن جوته فى أدبه بالمواطن الالمانى وحده ، ولا بالاوروبى وحده ، بل كان العالمى ، وبعبارة واحدة تعانق فيه الغرب والشرق ونحن هنا نقصر كلامنا على جوته الشرقى !



قنـــديل النـــور
زجاج منقوش من الفن الاسلامى

الشرق

فى قصص العهد القديم

كان طبيعيا أن تكون أول المامة بالشرق لشاعرنا « جوته » فى صباه عن طريق التوراة التى كانت أمه كثيرة العكوف على قراءتها ، عميقة التشبع بها . وقد كان والد الصبى شديد السهر على تعليمه ، وهو الذى وضع لهذا التعليم برنامجه ، ولم يكن ليسمح بعد وضعه اياه أن يدخله أدنى تغيير ، أو يحاد عنه قيد انملة . وكان هذا البرنامج يشمل التاريخ ، والجغرافيا ، والنبات ، والرياضة ، والرسم ، والموسيقى ، فضلا عن الدين ، كما كان يشمل من اللغات الحية الفرنسية ، والانجليزية ، والايطالية ، ومن اللغات القديمة اللاتينية، والاغريقية ، فضلا عن العبرانية لغة الكتاب المقدس

وكانت مدينة « فرانكفورت » على نهر « مين » ــ وهى موطن الاسرة ــ قد زحفت عليها فى مستهل عام ١٧٥٩ أثناء استعداد أهلها للاحتفال بعيد أول السنة ، فرقة

من الجيوش الفرنسية المشتركة فى حرب السنوات السبع التى كانت تدور رحاها فى البلاد الالمانية ، انتصارا لملكة النمسا « مارى تيريز » ضد مطامع « فردريك الثانى » ملك بروسيا . وقد دام احتلال الفرنسيين لمدينة فرانكفورت فى ذلك الحين نحو أربع سنوات (١٧٥٩ - ١٧٦٣) وقد افاد الشاعر من ذلك اختلاطه بالفرنسيين ، واتقانه لغتهم ، وشهوده لفرقهم التمثيلية ، التى غرست فيه حب المسرح ، والتأليف المسرحى .

ولكن ذلك لم يكن ليشغل فتانا الذى لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره عن دراسة العبرية ، التى بدا له أنها ضرورية لا غناء عنها ، لفهم التوراة فى نصها الاصلى . وقد استجاب والده لرغبته ، فوكل تعليمه فى المدة من سنة ١٧٦٢ لسنة ١٧٦٥ للاستاذ البرخت Albrecht وهو خورى ، يلبس المسح الدينى ، والشعر المستعار .

وكان يتولى الى جانب تعليم تلميذه اللغة العبرية شرح التوراة ، وكانت تلتمع عيناه المحمرتان وتهفو على ثغره ابتسامة متهكمة وهو يشرح له النصوص الدينية ، ناقدا لها فى التواء وتورية . وكان يقابل بالضحك والسخرية ، الحاف تلميذه فى السؤال بغية الاستيضاح والفهم ، مؤكدا للصبى أنه حرى بأن يهنىء نفسه لو استطاع ان يتلو النص العبرى للتوراة مجرد تلاوة ، أما فهمها فتلك مسألة أخرى . ولم يكن من شأن هذه الوخزة الا ان زادت من عناد الصبى ، فلم يلبث أن ترجم من السفر القديم بعض نصوصه العبرية الى اللغة الالمانية

ولم يكن يدفع جوته الى هذا الاصرار ايمانه بالتوراة ، ويقينه بأنها منزلة من السماء كما هى بنصها وفصها ، واطمئنانه الى جميع ما جاء بها . فقد كانت للصبى اعتراضات عليها منذ صباه ، أثارت عجب أستاذه ،

الذى كان يشجعه عليها بضحكاته المفتعلة ذات الــدلالة الخفية . وانما كان اهتمامه للتوراة ، واعجابه بهـــا من ناحيتها الادبية . بما تعرضه من وصف للبيئات . ورسم للشخصـيات ، وعلى الاخص ما ترويه من المغامرات القصصية ، والمواقف الغرامية

***

فلا غرو اذا رأيناه يتحدث عن التوراة على أنها فى معظمها كتاب شعر من أقدم كتب الاشعار . وليس من شك عندنا فى أنه وهو يقرأ منها « ســـــفر أيوب » وما ابتلى به من الارزاء ، قد ذكر زلزال لشبونة الــذى وقع عام ١٧٥٥ فملأت مسامعه وهو بعد فى السادسة من عمره أخبار الكارثة وفظائعها حتى روعت أحلامه وزلزلت أيمانه ..

ولكن شاعرنا كان كثير الوقوف عند مواضع الحب الساذج الطبيعى مثل «قصة راعوث» وأكثر منها عند «نشيد الانشاد» الذى كان دائم الرجوع اليه والتغنى به. واذا كان شاعرنا قد أسف على شىء فقد كان أسفه على كون هذه الاناشيد مقطعات مقتضبة ، وأنهـــا فى ايرادها كيفما اتفق ، وتكديسها من غير نسق ، لا تحمل اليه المتعة الصرفة فى أكمل صورها . ولكنه مع ذلك كان يحس فيها ذلك الجو الشعرى الذى تفتحت فيــه تلك النفوس الشاعرة ، ويستروح فى هذا السفر العاطفى من أوله الى آخره مسرى نسمة حلوة دفيئة ، تهب من أرض كنعان الحبيبة ، وتتراءى له حياة الحقول الوادعة ومزارع الكروم ومنبسط الرياض ومنابت الطيب العاطر ، ومن ورائها يأنس زحمة المدن بأهلها ، ويتخيل فيما وراء ذلك جميعه قصر سليمان فى بذخه ، وغلوائه ، بين المئات من سراريه ونسائه . ومع ذلك يبقى الموضوع الاساسى ،

ذلك الهوى المضطرم النارى . بين قلبين فى عنفوان الصبا ، لا يكفان عن طلب اللقاء . فاذا كان لقاء اعقبه الجفاء ، ثم لا يزالان فى دفع وجذب فى سلسلة متتابعة من مواقف الحب بلغت الغاية التى لا غاية بعدها . فى السذاجة الأولية ، والبساطة الطبيعية

وقد تأثر جوته الصبى بأكثر من قصة من قصص التوراة العبرية ، فترجم بعض مقطوعاتها شعرا ، مثل « نشيد الانشاد » ، كما طاب له أن يضع وهو فى هذه السن الصغيرة قصة لغلام فى مثل سنه ، فكتب « يوسف واخوته »

***

ولم تكن هذه التخريجات للقصص الدينى ، والتفريعات عليه ، شيئا مستجدا على الالمان . فقد كان من السابقين الى ذلك ، الشاعر « يوهان بودمر Johann Bodmer (١٦٩٨ – ١٧٨٣) مترجم ملحمة ملتـــون » « الفردوس المفقود » ، فقد تناول قصص التوراة الدينية فى شعره ومن ذلك منظومتان عن يوسف اولاهما : « يوسف وزليخا » وتتألف من نشيدين ، والاخرى : « يعقوب ويوسف » من ثلاثة أناشيد . ولكن الذى هز المانيا كلها هو صاحب الملحمـة المسيحية « الشـــاعر فردريك كلوبستوك Friedrick Klopstock بما اجترأ عليه من عرضها فى قالب من الشعر الموزون غير المقفى ، على مثال ملتون . وما بثه فيها من الحرارة والانفعال أنقوى . وقد ذكر جوته تأثره وهو طفل بهذا الشاعر مع ما كان من انكار والده لشعره غير المقفى ، ولكنه نفى أنه قرا لسلفه « بودمر » شيئا على الاطلاق او شيئا يذكر من شعر القصص الدينى

ويقرر جوته فى مذكراته « شعر وحقيقة » فيما رواه عن صباه ، انه جعل همه فى قصـــته عن « يوسف واخوته » التوسع فى سردها بأن يدخل عليها هنا وهناك ، وقائع ومواقف زيادة فى التفصيل ، ليجعل من تلك القصة القديمة الساذجة عملا أدبيا مستطرفا . وقد بلغ من رضى الفلام عن قصته أن ضم اليها بعض ما كان قد تيسر له نظمه من أشعار ـ عدا غير المقفى منها ـ وجعل من ذلك جميعه مخطوطة جميلة ، فى مجلد جميل ، اهداه الى والده ..



نقش على الخـزف
من الفن الاسـلامى

الشرق الاسلامى

كما يتمثل فى القرآن الكريم وفى حياة محمد

وينتقل جوته من الشرق كما تمثله قصص التوراة فى « العهد القديم » الى الشرق الاسلامى كما يتمثل فى القرآن الكريم وفى حياة محمد النبى العربى

ولا شك عندنا فى أن مطالعة الشاعر الالمانى « سفر أيوب » كانت قد زودته بفكرة رفيعة عما جبل عليه العربى ، من قريحة وطبيعة . وقد يتساءل البعض عن العلاقة بين هذا السفر العبرى من أسفار التوراة ، وبين العربية . ولكن التحقيق العلمى فى عهد « جوته » نفسه قد نفى عن هذا الكتاب نسبته الى موسى وغيره من العبرانيين ، وأثبتها للعرب المجاورين . وهذا المحقق هو أستاذ شاعرنا « جوته » وأستاذ عصره كله فى أدب العبرانيين وتاريخهم ، ونعنى به « يوهان جوتفريد هردر Johann Gottfried Herder » اذ يقول فى كتابه عن الشعر العبرى : « أن موسى عندى شاعر عظيم . ولكن القول

بأنه مؤلف « سفر ايوب » كالقول بأن سليمان مؤلف الالياذة . ويمكننى القول دون مفاخرة ، انى درست فى امعان طابع الاشعار العبرانية كلها ، وادخلت فى حسابى الاحوال المتغيرة ، والسنن المتعاقبة . ومع ذلك ظل الفارق بين اسفار موسى و « سفر ايوب » كالمسافة بين المغرب والمشرق . وذلك أن الشعر الموسوى حتى فى رفيع المقطوعات لا يخلو من ليونة ونعومة ، بخلاف الشعر فى سفر أيوب ، فهو جامع فى ايجازه البليغ ، زاخر بمعناه العميق ، فيه قوة وبطولة ، منيف على الذروة العليا فى العبارة والخيال ، تشهد افكاره فى حدود جملته وفى تقاطيع تفصيله ، على انه نسيج وحده ، فلم تتكرر قوالبه ومعانيه فى غيره من أسفار العبرانيين ، كما هو الشأن فى هذه الاسفار ، مما يقطع بأن صاحبه عربى ، من مشايخ القبـــائل ذوى الثراء ، وانه من الادوميين فى الحدود بين العبرانيين ، والعرب الجاهليين

وهذا بعينه ما كان قد ذهب اليه بعض آباء الكنيسة الاولين أنفسهم من اليونان واللاتين ، ومنهم « أوريجين » والقديس «جريجوار» القائلان بأن أيوب هو نفسه الذى كتب هذا الشعر بالعربية وهى لغة بلاده الطبيعية ، ثم جاء موسى فترجمه الى العبرية . وقد أيدت هذا الرأى بوجه العموم بحوث المتأخرين من العلماء المتخصصين ونذكر منهم « أرنست رينان » الفيلسوف الفرنسى فى كتابه عن سفر أيوب ، كما أصبح هذا القول من الحقائق المقررة منذ ذلك الحين . ولا معدى لنا عن أن ننبه هنا الى أن جوته كان متأثرا بما جاء من تحدى الشيطان لله فى فاتحة « سفر أيوب » حين ذكر الله عبده بالتقى والصلاح ، فقد جاء جوته بمثل ذلك فى مسرحيتـه الكبرى « فاوست » اذ جعل لها « فاتحة فى السماء »

ذكر الله فيها عبده العلامة فاوست بالخير ، فتحـــــدى الشيطان ربه فى افساده

ولقد اتصل « جوته » ـ أثناء مقامه فى ستراسبورج (باقليم الالزاس) عامى ١٧٧٠ ، ١٧٧١ – بذلك العلامة الأديب « هردر » فأذكى فى الشاعر غرامه بالشرق ، فكان من أثر استحثاثه له أن شرع بعيد عودته الى بلدته فرانكفورت فى الاهتمام بالشرق العربى

وطبيعى أن لا يكون هنالك ما هو أجل قدرا وأبلغ اثرا من القرآن الكريم ونبى الاسلام العظيم



نقش على الخـزف
من الفن الاسـلامى



نموذج من الكتابة العربية للآيات
القرآنية من القرن السادس الهجري

القرآن الكريم

ها هو ذا « جـــوته » فى فرانكورت عام ١٧٧٢ يعكف على تلاوة القرآن فى ترجمة المانية انجزها يومئذ أحـد أبناء بلدته ، المستشرق العلامة « مرجرلين Mergerlin » حتى اذا فرغ منها عكف من بعدها على تلاوة القرآن فى ترجمة لاتينية سابقة لها ، طبعها فى مدينـــة بادوا (فى الشمال الشرقى من ايطاليا) القس الجزويتى « ماراتشى Maracci بمدينة ليبزج الالمانية

وما أن أتم جوته تلاوة القرآن فى الترجمتين ، حتى اقتبس بعض الآيات القرآنية ، نقلا عن الترجمة الالمانية. ونحن نعرف اليوم ما اقتبسه الشاعر الالمانى من الآيات ، بفضل طبعها بعد ذلك فى مجلد للمرة الاولى بمعـرفة «شول Scholl » عام ١٨٤٦ ، وهذه الآيات هى قوله تعالى:

« بلى ، من أسلم وجهـــه لله وهـــو محسن فلـه

أجره عند ربه ، ولا خـــوف عليهم ولا هم يحزنون ،
ـ « ولله المشرق والمغرب ، فأينما تولوا فثم وجه الله ،
ان الله واسع عليم » ـ « ان فى خلق السموات والارض ،
واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر
بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا
به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ، وتصريف
الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض ، لآيات
لقوم يعقلون » ـ « ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق
بما لا يسمع الا دعاء ونداء ، صم بكم عمى فهم لا يعقلون»
ـ « ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب
ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب
والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى
والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام
الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم اذا عاهدوا ،
والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك
الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون » وكلها من سورة
البقرة . ثم من سورة آل عمران قوله تعالى : « وما
محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفان مات
أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيـه
فلن يضر الله شيئا ، وسيجزى الله الشاكرين » ، « وما
كان الله ليطلعكم على الغيب ، ولكن الله يجتبى من رسله
من يشاء ، فآمنوا بالله ورسله وان تؤمنوا وتتقوا فلكم
أجر عظيم » ومن سورة النساء : « مذبذبين بين ذلك
لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ، ومن يضلل الله فلن تجد
له سبيلا » . ومن سورة المائدة : « ولو أن أهل الكتاب
آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنـات
النعيم ، ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم
من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم . منهم أمة

مقتصدة ، وكثير منهم ساء ما يعملون » ، « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن اشياء ان تبدلكم تسؤكم وان تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبدلكم ، عفا الله عنها ، والله غفور حليم . قد سألها قوم من قبلكم ثم اصبحوا بها كافرين » . ومن سورة الانعام : « وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين » . ومن سورة يونس : « دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام » . ومن سورة يوسف : « اذ قالوا: ليوسف واخوه احب الى ابينا منا ونحن عصبة ، ان ابانا لفى ضلال مبين » ومن سورة الاسراء : « اقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل وقرآن الفجر ، ان قرآن الفجر كان مشهودا » . ومن سورة طه : « قال رب اشرح لى صدرى » . ومن سورة العنكبوت : « خلق الله السموات والارض بالحق ، ان فى ذلك لآية للمؤمنين » ـ « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذا لارتاب المبطلون » ـ وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه ، قل انما الآيات عند الله ، وانما انا نذير مبين »

***

وقد ظل جوته طويلا يمعن فى دراسة القرآن امعان الباحثين . وهو يقول ان القارىء الاجنبى قد يمله لأول قراءته ، ولكنه يعود فينجذب اليه ، وفى النهاية يروعه ويلزمه الاكبار والتعظيم . ويستشهد جوته فى كلامه عن القرآن الكريم وما جاء به من تعاليم الدين بهذه الآيات : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون . ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم

لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم » . ويقول جوته ان القرآن يردد قواعد هذه التعاليم ، ويكرر البشير والنذير سورة بعد سورة ، وهو لا يرى فى هذا الترديد والتكرار ما يراه النقاد الغربيون ، لأن محمدا لم يرسل برسالة « شاعر » للتفنن فى القول والتنويع فى ضروب الكلام وعرض الصورة المزوقة من الأخيلة والاوهام . لاستحداث اللذة وادخال الطرب ، بل هو بنص القرآن بعيد عن هذا الوصف ، وانما محمد « نبى » مرسل لغرض مقدر مرسوم يتوخى اليه أبسط وسيلة واقوم طريق ، وهذا الغرض هو اعلان الشريعة وجمع الأمم حولها لينضووا تحت لوائها . فالكتاب المنزل على محمد انما بعث به الى الناس ليقتضيهم الخبوت والايمان لا لمجرد المتعة والاستحسان ، ومن ثمة نراه اذا ما عرض للقصص الدينى لم يعرضه معرض التاريخ والاخبار ، بل يقتصر منه على مكان الحكمة ومضرب الامثال ومواضع الاعتبار

ويظهر فى شعر جوته الاخير الذى أسماه « الديوان الشرقى للمؤلف الغربى » تأثره بالقرآن فى روحه وعباراته . فالقارىء المسلم لا يسعه الا أن يذكر من الايات القرآنية اكثر من واحدة حين يقرا المقطوعة التالية لجوته :

« لله المشرق ولله المغرب ، وفى راحتيه الشمال والجنوب جميعا . هو الحق ، وما يشاء بعباده فهو الحق ، سبحانه له الاسماء الحسنى ، وتبارك اسمه الحق ، وتعالى علوا كبيرا . آمين

« ينازعنى وسواس الغى ، وأنت المعيذ من شر

الوسواس الخناس . فاللهم اهدنى فى الاعمال والنيات الى الصراط المستقيم

« ومهما زينت النزعات والشهوات ، فالنفس لاتذهب شعاعا ولا تضيع ضياعا ، ولا تلبث بما أودع فيها من الحفاظ والاباء أن تنطلق عارجة الى أوج العلاء

« وللناس فى ترديد أنفاسهم آيتان من الشـــهيق والزفير : هذا يفعم الصدر ، وهذا يفرج عنه . كذلك الحياة عجيبة التركيب . فاشكر ربك اذا بليت ، واشكر ربك اذا عوفيت »

ويعمد جوته احيانا الى التضمين الصريح . ومن ذلك تضمينه للآية الكريمة « ان الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها » ، فيقول فى مقطوعة له بعنوان التشبيه :

« لم لا أصطنع من التشابيه ما أشاء ، والله لا يستحى أن يضرب مثلا للحياة بعوضة ؟

« لم لا أصطنع من التشابيه ما أشاء ، والله يجلو لى فى جمال عينى الحبيبة ، لمحة من جماله رائعة عجيبة »

حياة محمد نبى الاسلام

غير خاف ان العالم المسيحى كان بطبيعة الحـــال فى ايام الحروب الصليبية وفى اثناء الفتوحات العثمانية فى اوروبا سيىء الراى فى صاحب الدعوة الاسلامية . وكانت الكنيسة الكاثوليكية تتجاهل كتب السيرة النبـوية ، ليتسع المجال لتصوير « محمد » على خلاف صورته التاريخية دون تعرض للدعوة الدينيـة ، كما كانت تتجاهل القرآن ولا تعترف بوجوده ، وقد بلغ من ذلك ان احرقت نسخة القرآن العربية فى البندقية عام ١٥٣٠ وان حرم البابا اسكندر طبعه وترجمته . وكانت التراجم الاولى للقرآن فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، مشفوعة دائما بالمقدمات ، والحواشى ، والتذييلات فى دحضه وتفنيده من قبيل الاعلان من جانب المترجمين عن حسن ايمانهم ، ودفعا للشبهة عن أنفسهم ، وتزكية لعملهم وتكفيرا عنه فى عقيدتهم وعند أهل ملتهم . ثم

اخذ الموقف مع دخول القرن الثامن عشر الذى يسمونه « عصر النور » يدخل عليه التحسن شيئا فشيئا على نحو مستمر ، ولكنه لا يكاد يحس به من فرط بطئه

وكان العالم الهولندى «أدريان ريلان Adrien Reland» أول من امسك القلم من العلماء الاحرار للعمل على رد الاعتبار للاسلام، وصاحب الرسالة فى كتابه عن «الديانة المحمدية » ، ثم طلع من بعـــده المستشرق الفرنسى « ارنست جانيه Ernest Gagnier بكتابه « حياة محمد » عام ١٧٢٣ وقد نقل فيه الى اللاتينية سيرة النبى عن المؤرخ العربى «أبو الفدا» ، ولا شك أن اعتماد المستشرق على مصادر جديدة غير مصادر القوم الخرافية دليل على ترفعه عن التعصب الأعمى ، واعتصـــامه قدر الاستطاعة بروح الانصاف ، والتزام المنهج الموضوعى .

واقتفى اثر هؤلاء وتقدم عليهم غيرهم مثل « هنرى كونت دى بولانفلييه Henri comte de Boulainvilliers » عام ١٧٣٠ فى كتابه « حياة محمد » الذى يأخذ عليه المتعصبون من أهل ملته أنه يتحدث عن صاحب الدعوة الاسلامية ، باعتباره رسولا للعناية الالهية .

ولقد اطلع شاعرنا جوته فى عام ١٧٧٣ على الجزئين الاولين من « تاريخ محمـــد ـ مشرع العـــــربية Histoire de la vie de Mahomet Legislateur de l'Arabie لمؤلفـــه الفرنسى « تربين François Henri Turpin » وهو من قبيل من ذكرناهم على وجه العموم

ولكنه لا ينبغى أن يغيب عن البال أن ما يسمونه عصر النور لغلبة الفلسفة العقلية التى مهدت للثورة الفرنسية فى أواخره ، كان دعاته يحملون حملة شعواء على الأديان عامة ، ولا يريدون أن يروا فى أصحاب الدين الا أصحاب مخرقة دجالين ، يزعمـون للنـاس أنهم من المرسلين الملهمين

ومن هؤلاء « فولتير » [illegible] ان يروج لهذا التفكير اللادينى على المسرح بطريقتـــه الملتـوية غير المستقيمة . وقد كان هذا دأبه ومنهجه الذى درج عليه منذ البداية ، فنراه فى مسرحيته الاولى « أوديب » عام ١٧١٨ يتظاهر بمهاجمة الكهان فى الوثنية ، وهو يعنى الكنيسة المسيحية ، كما فهم من أراد الفهم من القارئين والسامعين من منطوق قوله : « ان رجال الدين عندنا ليسوا كما يتخيله عامة شعبنا ، ان علمهم المزعوم كله انما هو من صنع وهمنا واعتقادنا » . بيد أن فولتير فى هذه المرة أراد أن يتقدم خطوة أخرى الى الهدف ، فاستدبر خلفه رجال الدين ، وانتحى نحو النبيين ولما لم يكن فى الاستطاعة ـ حتى لو واتته الشجاعة ـ أن يتعرض فى مواجهة جمهور المسرح الاوروبى ـ وهم فى جملتهم على الدين المسيحى ـ لأحد الانبياء الذين تقدم ذكرهم فى الكتاب المقدس سواء فى العهد القديم او فى العهد الجديد ، فلم يبق أمامه الا أن يتعرض لنبى المسلمين ، ليتوصل من ذلك الى الطعن من طرف خفى على كل نبى . فكتب مسرحيته « التعصب أو محمد النبى » عام ١٧٤١ ، ورأى امعانا فى التعمية على رقابة المطبوعات فضلا عن الأخذ بالحيطة والاعتصام بالتقية ان يجعل ـ وهو المشهور بعدائه اللدود للكنيسة ـ اهداء المسرحية الى البابا « بنوا الرابع عشر » مختتما الاهداء بقوله : وبعد ، فليأذن لى ـ صاحب القداسة ـ ان أضع المسرحية ومؤلفها عند موطىء قدميه ، وأن أزداد جراة ، فألتمس منـــه للمسرحيـــة الرعاية ، ولمؤلفها البركة » . ولم يكن البابا ليفوته ما يستهدفه « فولتير » من وراء مسرحيته ، فرد عليه بعد أسابيع بكتاب اقتصر فيه على القول بأنه قرأ « مسرحية محمد » باهتمام .

وقد مثلت المسرحية فى مدينة « ليل » أولا عام ١٧٤١ . ثم قدمتها « الكوميدى فرانسيز » فى باريس عام ١٨٤٢ فاحتج عليها السفير التركى لدى الحكومة الفرنسية . وعقد مؤتمرا دعا اليه كتاب فرنسا الاحرار . فوقفت الحكومة تمثيلها ولم تزد حفلاتها على الثلاث . وظلت بعدها تسعة اعوام متوارية فى الظلام

وطبيعى ان لا يعنينا هذا الموقف من « فولتير » ما دام هو وامثاله من كتـاب الثورة الفرنسية معـدودين من الملاحدة حينا ، ومن منكرى النبـوات عامة فى اكثر الاحايين

***

واما الذى يعنينا فى هذا المقام فهو رأى غير المتعصبين من اهل الديانات الاخرى ، والذين لم يختم الله على قلوبهم فلم تظلم بصيرتها ولم ينضب فيها معين الايمان . وقد ذكرنا كيف تطور هؤلاء ، واعتدل موقفهم وزاد اعتبارهم لفضل الاسلام واعجابهم بشخصية محمد ، بقدر امعانهم فى دراسة التعاليم القرآنية ، واطلاعهم على السيرة النبوية فى مصادرها الحقيقية . وغير جدير بنا مع ذلك أن نتوقع منهم وهم على غير هذا الدين أن يتحدثوا عن صاحب الدعوة الاسلامية ، كما نتحـدث نحن المسلمين ، بل حسبهم ـ وهذا قصاراهم ـ هدمهم الخرافات المزرية التى أشيعت عن محمد فى العـالم المسيحى ، واظهارهم محمـدا للعالم المسيحى مؤمنـا صالحا يعبد الله ثابت اليقين ، ومجاهدا أرادت مشيئة الله أن تتخذه من المرسلين لنشر عقيدة التوحيد بين العالمين

ولا يسعنا اذا ذكرنا هؤلاء المنصفين الا أن نضع فى

طليعتهم صاحب هذا القول المبين ، وهو شاعرنا «جوته» اذ يقول فى بعض أشعار الحكمة من ديوانه :

« من حماقة الانسان فى دنياه
أن يتعصب كل منا لما يراه
واذا الاسلام كان معناه ان لله التسليم
فاننا أجمعين ، نحيا ونموت مسلمين »

***

ولقد كان جوته مولعا بالمسرح منذ حداثته الاولى . ويرجع ذلك الى التأثير الذى تركه فى نفسه مسرح العرائس الذى أهدته اياه جدته فى عيد الميلاد وهو فى السابعة من عمره . ويذكر جوته فى بعض مذكراته المسماة «تلمذة ولهلم مايستر» ، من أول عروض هذا المسرح ، قصة داود الصبى وجلياط العملاق القوى من قصص التوراة ، ويذكر بعد ذلك كيف قام فى هذه السن المبكرة بالقاء دور كل منهما فى لهجة متقنة ، وكيف كان يعبث فى مكتبة والده فى طلب مسرحيات أفضل من هذه ليخرجها مع أخته العزيزة الدميمة « كورنليا » الصغيرة ، مع الاكتفاء من هذه المسرحيات بالفصل الاخير سواء أكانت درامات ألمانية أم أوبرات ايطالية ، وكانت الاخيرة هى الاثيرة عنده لأن استخدام عرائسه الخشبية فيها مثل داود وجلياط ، كان أكثر جوازا من استخدامها فى الدرامات العادية ، ولقد أعقب هذا التطور ما سبق أن ذكرناه فى الفصل السابق من تردده وهو فى العاشرة من عمره على الفرق الفرنسية التى جاءت على أثر احتلال الفرنسيين لبلدته فرانكفورت أثناء حرب الاعوام السبعة ، وشهوده مسرحياتها مع النظارة المتفرجين فضلا عن اطلاعه على ما يجرى وراء المسرح بفضل معرفته لبعض المساعدين الفتيان المتصلين بالفرقة

وقد كان من اثر هذا جميعه ، ان تطلع الفتى الى محاولة تاليف المسرحيات من قصص التوراة ، لتمثلها تلك الفرق الفرنسية وهى محاولات أحرقها بعد ذلك فيما أحرقه من آثار الصبا ، وهو طالب فى ليبزج (١٧٦٥ - ١٧٦٩) . ولقد وضع شاعرنا فى هذه المدينه أكثر من مسرحية بعضها مفقود والبعض موجود بين أيدينا ، سواء فى نصها ، او مشروعها ، وهى شاهدة بما كان ملازما جوته منذ البداية من الولع بالتمثيليات

فلا غرابة بعد ذلك اذا علمنا ما انعقد عليه عزم الشاعر الالمانى من تأليف تمثيلية عن محمد ، وشروعه فيها منذ عام ١٧٧٣ اذ نظم منها ذلك العام فاتحة الفصل الاول : « مناجاة محمد » وهو فتى ، وقد خلا بنفسه بالليل ، بعيدا فى البادية ، تحت سماء صافية سافرة النجوم . وقد اعتمد الشاعر فى المناجاة على مضمون هذه الآيات من سورة الانعام فى دحض الشرك : « واذ قال ابراهيم لأبيه آزر أتتخذ اصناما آلهة انى اراك وقومك فى ضلال مبين . وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل راى كوكبا قال هذا ربى ، فلما أفل قال لا احب الآفلين . فلما راى القمر بازغا قال هذا ربى ، فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر ، فلما أفلت قال ياقوم انى برىء مما تشركون . انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض حنيفا وما أنا من المشركين»

وختم الشاعر مناجاة النبى بقوله :

« فارتفع أيها القلب العامر بالحب نحو الخالق

انك وحدك مولاى يا رب !

انك الحب المحيط بكل شيء
خالق الشمس والقمر والكواكب
خالق السماء والارض ، وخالق نفسى »

***

وبعد هذه المناجاة يدير جوته حوارا بين محمد ومرضعته حليمة

محمد : « يرى شبح حليمة مقبلة » .. حليمة ! أكان لا بد من قدومها فى هذه الساعة العامرة بالسعادة ! « مخاطبا حليمة » ماذا تريدين منى يا حليمة ؟

حليمة : لا تقلقنى هكذا يا بنى الحبيب ، انى أبحث عنك منذ غروب الشمس . لا تعرض شبابك الفض لأهوال الليل ومخاطره

محمد : سيان عند الاشرار ليل أو نهار . ان الرذيلة وحدها تجر الى التهلكة ، كما يستجلب الضفدع سم الافعى . وقد يكون الصبا كالتعويذة النافعة تحت هذه السماء الرائعة

حليمة : تظل وحدك هكذا طول الليل ، بعيدا فى هذه البادية التى يعيث فيها الذؤبان وقطاع الطرق

محمد : لست وحدى . ان الله ربى يؤنس وحدتى

حليمة : أرأيته ؟

محمد : ألا ترينه ؟ عند كل عين جارية ، وتحت كل شجرة مزهرة ، أراه بعين البصيرة مقبلا على . وأحس حرارة عطفه وحبه . ما أعظم عرفانى لفضله وتسبيحى بحمده ! لقد فتح صدرى وانتزع عنه الشغاف حتى أحس قربه فى الصميم من قلبى

حليمة : انك حالم واهم ! فكيف يمكن أن تكون حيا
بعد أن يفتح صدرك !
محمد : سأدعو الله حتى يلهمك أن تفهميني
حليمة : ومن هو ربك ! أهو هبل أم العزى ؟
محمد : يا للقوم المناكيـد ! انك تتوجهين الى الحجر
بحبك ! انك تطلبين من الصلصال أن يحميك !
هذه الارباب ليس لها اذن تسمع الدعاء .
ولا قدرة على تلبية النداء
حليمة : ان الحجر يعمره عامر ، والصلصال يحوم
حوله حائم ، وانه ليسمعنى وهو قادر عظيم
محمد : ماذا يمكن ان تكون قدرته وثمة ثلاثمائة مثله ؟
حليمة : أليس مثل ربك أحد ؟
محمد : اذا كان للرب كفوا ، ايكون بعدها ربا ؟
حليمة : فى أى مكان يحل ؟
محمد : فى كل مكان
حليمة : سيان هذا والقول أنه غير ذى مكان . فكيف
اذن تدركه ؟
محمد : اللهم أبتهل اليك أن تنقذ البشر من ضلالهم ،
فهم أجمعون اليك يارب راغبون والى وجهك
الكريم متطلعون

***

وقد ورد فى مذكرات جوته التى أسماها « شعر وحقيقة » ما يفيد أنه نظم أشعارا غنائية عديدة لتأخذ مكانها من التمثيلية ، ولكن ما بقى منها بين أيدينا نشيد واحد كان قد نشره الشاعر فى التقويم الشعرى الصادر فى جوتنجن Gottingen عام ١٧٧٣ وهذا النشيد على صورة مقطعات يتناوب انشادها « على » القائد الشجاع

الامين وزوجته « فاطمة » بنت الرسول ، تحية للنبى .
وهو تصوير رائع لهذه القوة التى فجرها الله على يد رسوله خاتم المرسلين ، ووصف شعرى لفيض الاسلام ، وسرعة ذيوعه حتى انتظم النجاد والوهاد ، وبلغ الى المحيط الأعظم :

على : انظروا الى السيل العارم القوى ، وقد انحدر من الجبل الشامخ العلى ، أبلج متألقا كأنه الكوكب الدرى

فاطمة : لقد أرضعته من وراء السحاب ملائكة الخير فى مهده بين الصخور والادغال

على : وانه لينهمر من السحاب ، مندفعا فى عنفوان الشباب ، ولا يزال فى انحداره على جلامد الصخر ، يتنزى فائرا متوثبا نحو السماء ، مهللا تهليل الفرح

فاطمة : جارفا فى طريقه الحصى المجزع والغثاء الأحوى

على : وكالقائد المقدام ، الجرىء الجنان ، الثابت الخطى ، يجر فى اثره جداول الربى والنجاد

فاطمة : ويبلغ الوادى ، فتتفتح الازهار تحت أقدامه ، وتحيا المروج من أنفاسه

على : لا شىء يستوقفه ، لا الوادى الوارف الظليل ، ولا الازهار تلتف حول قدميه وتطوق رجليه ، وترمقه بلحاظها الوامقة. بل هو مندفع عجلان صامد الى الوهاد

فاطمة : وهذه أنهار الوهاد تسعى اليه فى سماح ومحبة، مستسلمة له مندمجة فيه . وهذا هو يجرى فى الوهاد ، فخورا بعبابه السلسال الفضى

علي : الوهاد والنجاد كلها فخورة به

فاطمة : وانهار الوهاد ، وجداول النجاد تهلل جميعا من الفرح متصايحة

علي وفاطمة في صوت واحد : خذنا معك ! خذنا معك !

فاطمة : خذنا معك الى البحر المحيط الازلي ، الذي ينتظرنا باسطا ذراعيه . لقد طال ما بسطهما ليضم أبناءه المشتاقين اليه

علي : وما كان هذا الفيض كله ليبقى مقصورا على الصحراء الجرداء . ما كان هذا الفيض ليفيض في رمال الرمضاء ، وتمتصه الشمس الصالبة في كبد السماء ، ويصده الكثيب من الكثبان، فيلبث عنده غديرا راكدا من الغدران . أيها السيل ، خذ معك أنهار الوهاد !

فاطمة : وجداول النجاد

علي وفاطمة في صوت واحد : خذنا معك ! خذنا معك !

علي :هلم جميعا ، هو ذا العباب يطم ويزخر ، ويزداد عظمة على عظمة . هو ذا شعب بأسره ، وعلى رأسه زعيمه الاكبر مرتفعا الى أوج العلا ؛ وهو في زحفه الظافر ، يجوب الآفاق ويخلع اسمه على الاقطار ، وتنشأ عند قدميه المدائن والامصار

فاطمة : ولكنه ماض قدما لا يلوى على شيء ، لا على المدائن الزاهرة ، ولا على الابراج المشيدة ، أو القباب المتوهجة الذرى ، ولا على صروح المرمر ، وكلها من آثار فضله

على : وعلى متن عبابه الجبار تجرى منشئات السفن كالاعلام، شارعة اشرعتها الخفاقة الى السماء، شاهدة على قوته وعظمته . وهكذا يمضى السيل العظيم الى الامام بأبنائه

فاطمة : ويمضى الى الامام ببناته

فاطمة وعلى فى صوت واحد : الى أبيهم ، ذلك البحر العظيم ، الذى ينتظرهم ليضمهم الى صدره ، وهو يعج بالفرح العميم

***

ولعل هذا الحوار الشعرى فى تحية النبى كان مقصودا به أن يكون ختام المسرحية ، أو (مشهدا) قبيل ختامها . بيد أن الشاعر حين ضم الى مجموعة أشعاره التى نشرها عام ١٧٨٩ هذه القصيدة ، أدرجها على غير نسق الحوار الذى كانت عليه، فجاءت فى المجموعة مرسلة من غير تقطيع ، وجعل عنوانها « النشيد المحمدى »

ولم تزل فكرة هذه التمثيلية الشعرية عن « محمد » ماثلة فى مخيلة « جوتة » حتى وضع مشروعها ، وعلى مقتضاه تبدأ الرواية بنشيد ينشده محمد وحده بالليل تحت السماء الساجية ، ويشعر بنفسه العاكفة على التأمل والتفكير تسمو صعدا الى الله الواحد الأحد الذى تستمد سائر الكائنات آية وجودها من وجوده . ويكاشف النبى بهذا الهدى زوجته خديجة فتؤمن به عن طيب نفس أول من يؤمن

وفى الفصل الثانى يقوم النبى بناصره « على » بالدعوة الى دينه بين عشيرته وقومه ، فيلقى العطف من فريق والمعارضة من فريق ، كل على حسب طبعه وتركيب

مراجه . ويقع الخلف بين القوم وتشتد الملاحاة ويضطر محمد الى الهجرة

وفى الفصل الثالث ينتصر محمد على خصـــومه . ويطهر الكعبة من الاوثان ، وتستوى دعوته شريعة مقررة . وتجتمع له اسباب الجهاد قولا وفعلا . ويظهر الرجل السياسى الى جانب الرجل الدينى

وفى الفصل الرابع يتابع محمد مغازيه ويتخذ لها عدتها ويتوسل بوسائلها . وتدس له السم امرأة من يهـــود خيبر ثكلت اخاها

وفى الفصل الخامس يبلغ محمد أوج كماله وتتجلى عظمته الروحية ، ثم تعاوده عقابيل السم ، فينتقل الى جوار ربه

ومما يؤسف له ان تقف مثل هذه المسرحية عند حد المشروع

***

ولقد ظل جوته على اعجابه بالقرآن والاسلام حتى نهاية حياته . ومما يذكر للاستشهاد به فى هذا الصدد ان الجنود الالمانية التى اشتركت الى جانب نابليون فى حربه الاسبـــانية حين عادوا الى موطنهم بعد نكبته فى روسيا وانقلاب حليفته بروسيا عليه ، كانت فرقة ويمار تحمل فى عودتها من اسبانيا صفحة من مصحف مخطوط عليها السورة الاخيرة من القرآن . فعكف جوته على هذه الصفحة يحاكى حروفها وكأنما تحمل اليه وهو ينسخها عبير الشرق . ولم يقر له قرار حتى حصل فى ٢٢ أكتوبر ١٨١٣ من المستشرق « اشتاد Eichstadt » على ترجمتها بالالمانية

وقد اعقب ذلك فى يناير عام ١٨١٤ أن جازت مدينة

« ويمار » فى أعقاب الفرنسيين المنهزمين أفواج بعد أفواج من الجيوش الروسية ومن بينها فرقة من فرسان البشكير وهم من رعايا روسيا التتار المسلمين ، فتمثل عندها فى خيال جوته زحف جيوش التتار فى القرن الرابع عشر متدفقين من الشرق الى الغرب بقيادة تيمور الاعرج الجبار . وقد نزل فرسان البشكير بالمدينة برهة ، واتخذوا من ردهة المعهد البروتستانتى مسجدا للصلاة فأتيح لاهل ويمار أن يشهدوا صلاة المسلمين . ولقد بلغ من وقع ذلك فى نفوسهم أن أقبل بعضهم وفى مقدمتهم سيدات المدينة على استعارة القرآن من المكتبة حتى يكونوا فى المعرفة على مستوى المناسبة. ولم يفت شاعرنا جوته ان يشهد صلاة هؤلاء المسلمين ويسمعهم يرتلون آيات القرآن الكريم فتأخذه ـ كالقوة الخفية ـ روعته ، وان لم يفقه مبناه وعبارته ، كما رأى امامهم واستقبل أميرهم فى مسرح ويمار . وانه ليذكر فى هزة المحبور ، انهم اختصوه من رعايتهم له بقوس وسهام ، وكان يعلقها فوق موقده فى البيت تذكارا عزيزا باقيا

وحسبنا هذا شاهدا على سعة أفق « جوته » وسمو فكره ونزاهة حكمه وترفعه عن التعصب الشعوبى والدينى . ولا يسعنا نحن المسلمين الا الاغتباط بموقف هذا الاديب العظيم من الاسلام وكتابه المبين ، ونبيه الكريم والتابعين

الشرق العربى

فى الشعر الجاهلى

بعد هذا الذى تقدم بنا من عكوف جوته فى « ويمار » على مطالعة ما صدر من ترجمات للقرآن العربى ، ومن تراجم لسيرة النبى العربى الذى أنزل عليه القرآن وأرسل به، لم يبق أمام شاعرنا الالمانى للاحاطة بالموضوع من بقية نواحيه الا أن يطلع كذلك على الشعر العربى القديم

فلا غرو اذا رأينا « جوته » فى عام ١٧٨٣ يبادر الى الاتصال بمكتبة جامعة « جوتنجن Gottingen » لتوافيه بالمعلقات العربية فى ترجمتها الانجليزية التى اصدرها فى لندن المستشرق «وليم جونز William Jones فى ذلك العام نفسه . وما كاد الكتاب يرد على شاعرنا وتحتويه يداه حتى انكب عليه يطالعه فى روية وامعان

وهكذا عاش الشاعر الالمانى فى عصر الجاهلية العربى بفضل ما ترجم الى اللغات الاوروبية وقتئذ من المعلقات ،

تلك القصائد المطولات التى احرزت السبق فى المباريات الادبية التى كانت تعقدها القبائل فى أسواقها الموسمية

فى هذه المعلقات العربية عاش « جوته » مع العرب البادية من الرعاة المقاتلة ، وهم لا يبرحون فى غارات اثر غارات ، يؤجج ضرامها ما كان لا يبرح قائما بين قبائلهم من ترات قديمة دفينة أو خصومات طارئة مستحدثة

ويقول « جوته » ان هذه المعلقات تحدثه بأقوى بيان عن العصبية التى كانت تربط أبناء القبيلة الواحدة ، وتدله على ما انطبع عليـــه العـــربى من روح الاقدام والبسالة ، والتحرز من العار والاستمساك بدرك الثأر ، وطلاب المجد والتماس الفخـــار . ويقول انه اذا كان شعراء العرب قد استهلوا قصائدهم بالغزل والنسيب ، فليس هذا منهم بعجيب ، فان ما يعرضون له فى شعرهم من صفة الحرب بفضائلها الصلبة القاسية ومنـــاظرها الدامية ، قد دعاهم الى أن يقدموا بين يدى هــذه الصـــور القوية للعنجهية الجاهلية ، ما يلطف حدتها ويخفف شدتها من وصف محاسن الحبيبة ، وبث لواعج الحب ، وشكوى الجفاء أو البعد ، وترديد الحنـين وتوكيد الحفاظ على الود

ويزيد فى قيمة المعلقات السبع عند شاعر الالمان أن لكل منها صفة غالبة تتميز بها ويشوق القارىء تنوعها . وهو يرى فيها رأى مترجمها المستشرق الانجليزى ، وخلاصته : أن معلقة « امرىء القيس » رقيقة مرحة ، مشرقة المعنى، رشيقة اللفظ ، شتى الفنون ، ذات رونق مستحب وطلاوة مستطابة . ومعلقة « طرفه » تتسم بالجـــرأة والحيوية والتوثب ويسرى فيهـــا الابتهاج والتطرب . ومعلقة « زهير » رصينة متزمتة ، عفيفة

مترومه . حافله بالتعاليم الخلقية الراجحه والحكم الجليله النافعه . ومعلقه « لبيد » لطيفه الوقع بارعه الحكايه انيقه الديباجه . يشكو فيها الشاعر من جفاء حبيبته ، ليخلص من ذلك الى تعداد مناقبه والاشادة بقبيلته . كما تطالعنا معلقة «عنترة» مستكبرة متفاخرة . متحدية ، متوعدة بليغة الدلالة . جزلة العبارة ، وهى مع ذلك حالية بمحاسن الوصف والاستعارة . وكذلك ينشدنا «عمرو بن كلثوم التغلبى» معلقته جامعة بين قوة العارضة والجلالة المهيبة والفخامة الرائعة . وعلى وتيرة اخرى ينشدنا « الحارث بن حلزة » معلقتـــه وهو فيها غزير الحكمة ، نافذ البصيرة ، ظاهر السمت وافر الكرامة وقراء العربية يذكرون لا محالة تلك الحرب الضروس التى دارت رحاها طويلا بين قبيلتى بكر وتغلب من جراء « البسوس » وكيف تصالحت القبيلتان آخر الامر على يد « عمرو بن هند » أحد ملوك الحيرة من آل المنذر . ثم ما كان بعد ذلك من تنازعهما فى مجلسه ، وقيـــام « الحارث بن حلزة » شاعر بكر والقائه معلقته التى عطف بها الملك الى قومه ، وانصراف « عمرو بن كلثوم » شاعر تغلب وسيدها وهو ناقم موغر الصدر ، ثم ما وقع بعد ذلك من دعوة الملك للشاعر التغلبى وأمه الى زيارة بلاطه وهو يضمر التحرش به والغض من اعتزازه ، فلم يملك الشاعر أن ثار به الغضب ، فوثب الى سيف الملك ـ وكان معلقا بجدار الرواق وليس هناك سيف غيره ـ فضرب به الملك فقتله ، وعاد توا الى موطن قومه فى الجزيرة الفراتية حيث نظم معلقته التى يقول فيها :

بأى مشيئة ـ عمرو بن هند ـ

تطيع بنا الوشـــاة وتزدرينـــا

فان قناتنـــا يا عمـــرو أعيت
على الاعداء قبـــلك أن تلينـــا

***

وكان من شيوع هذه المعلقة وتناقلها بين الناس ، ومفاخرة بنى تغلب بما جاء بها واكثارهم من روايتهـا وانشادها أن قال فيهم الشاعر :

الهى بنى تغلب عن كـل مكرمة
قصيدة قالها عمرو بن كلثـوم
يفاخرون بهـــا مذ كان أولهـم
يا للرجال لشعر غير مســئوم

***

وقد بلغ من حماسة « جوته » وهو يطالع الترجمة الانجليزية لهذه المعلقات فى عام ١٧٨٣ أن أرسل فى الرابع عشر من نوفمبر من ذلك العام نفسه الى صديق له هو : « كارل فون كنيبل Karl von Knebel » يخبره بعزمه على أن يحاول بدوره ترجمة المعلقات . وقد أمكن العثور على هذه المحاولة أخيرا ، فأضيفت الى آثار جوته فى طبعة ويمار . وبعد سنوات عديدة من هذه المحاولة وقع جوته فى ثنايا رسالة للدكتوراه عام ١٨١٤ على ترجمة لاتينية لقصيدة للشاعر العربى الجاهلى الذى اشتهر باســم « تأبط شرا » وهى قصيـــدته التى يتوعد فيها بنى هذيل بالانتقام ، وقد جاءت فى باب المراثى فى مختارات « الحماسة » لأبى تمام ومطلعها :

ان فى الشعب الذى دون سـلع
لقتيـــلا دمه ما يطـــل

***

ويقول « جوته » ان لباب هذه القصيدة ونخاع صلبها

هو عظمة الشخصية ، وخطر الموضوع وجسامته مع قسوة الاخذ بالثأر فى مشروعيته • وهو يعقب عليهـــا شارحا سياقها ، مبينا مواقفهـــا ، وكيف أصبحت الحكاية فيها شعرا بحسن تصرف الشـــاعر العربى فى سوق التفاصيل وتدبير أوضاعها واختيار مواقعها ، مع البعد كل البعـــد عن زخارف القول بحيث يبقى على القصيدة طابع الجد والحدث الجلل ، مما جعل القارىء لها يشهد بعين خياله تطور وقائعهـــا من البداية الى النهاية ، كما لو كان فى موقف صاحبها

ومما يجدر ذكره أن الشاعر الالمانى قد أورد ــ فيما اورد ــ قول أبناء العربية فى معرض الفخر : ان العرب مطبوعون بفطرتهم على الشعر . وهو يعقب على ذلك بقوله : لا بد فى مثل هذه الأمة الشاعرة من نبوغ العدد العديد من فحول الشعراء ، فاذا اختصوا منهم بالذكر ــ على تطاول الازمان وتعاقب الاجيال ــ سبعة فقط ليكونوا أصحاب المعلقات ، فليس لنـــا الا النزول على حكمهم وتلقى قرارهم بالتسليم والاخبات

***

وان القارىء لا يتمالك نفسه من الدهشة لما يبـديه جوته من قبول سخى كريم للتشبع بالروح العربى . فقد اجتمع كتاب الغرب على رأى ــ لا يخلو من شبهة العصبية الذميمة ــ وهو أن الحضارة الحديثة مهدها يونان القديمة . فلنسمع هنا الى الشاعر الالمانى ، يعلن فى حماسة وايمان قوى ، عدوله عنها الى حضارة الشرق العربى ، فى حاضرة العباسيين الزاهرة ، على ضفتى دجلة أيام هرون الرشيد والبرامكة

وهذا ما قاله جوته فى احدى منظمات ديوانه الشرقى :

« دع الاغريقى المثـــال ، يجبل الطينـــة ، ويصنع التمثال ، وليفتتن بعدها ما شاء الافتتان بالدمية التى ابدعتها يداه الصناعتان

« أما نحن ، فان متعتنا لجة دجلة والفرات ، نسبح فيها مسترسلين مع عنصر الماء ، حتى اذا ارتوت غلة النفس، تفجرت أفاويق الشعر فياضة مترنمة . فليغترف الشاعر من هذا الفيض بكفه الطهور ، فانه ليتكور فى يديه متلألئا كالبللور »

كذلك يعرض الشاعر الالمانى الى أغراض الشعر ، فلا ينكر على العرب تقسيمهم اياه الى أبواب أربعـة : الغزل ، والخمريات ، والمديح ، والهجاء . وفى ذلك يقول :

« كم هى العناصر التى يتألف منها الشعر فترضاه الخاصة ويلذ سماعه العامة ؟

« اذا قيل شعر ، فالنسيب المقدم . فان الحب اذا دخل الشعر زاد نبراته عذوبة وحلاوة

« ثم على الشعر أن يردد رنين الاقداح ، وهى تتلألأ بما فيهـــا من عتيق الراح كأنها الياقوت . فالعشاق والندامى هم وحدهم من نرتاح لهم ونستطيب مجلسهم

« كذلك يطيب فى الشعر أن يقرع السمع بصـليل السيوف ، ودوى النفير ، وجلبة الوغى . فاذا انجلت المعركة عن البطل الظافر ، كان من حقه المديح بما أبداه من العزيمة وشدة الأسر ، وما أصابه فى ميدان الشرف من الغلبة والنصر

« ولا معدى للشـــاعر فى آخر الامر ، عن استنكار أشياء شتى والتعرض لأصحابها بالهجاء المر، فما كان

لمثله ان يلقى الكريه القبيح ، بمثل مايلقى المستحب المليح

« فاذا اجتمعت للشاعر هذه العناصر الاربعة ، فقد اشاع الحياة والبهجة بين الورى أجمعين ، الى أبد الآبدين »

ويبلغ من تأثر جوته بمطالعاته فى الشعر الجاهلى ، ان تستهويه حياة رجل البادية العربى، فيقول فى مقطوعة له بعنوان « المنن الاربع » :

« لكى يسعد العرب فى بيدائهم ، راتعين فى بحبوحة فضائهم ، أولاهم المولى ذو الفضل العميم أربع منن :

« اولى هذه المنن : العمامة ، وهى زينة أروع من التيجان كافة

« ثم الخيمة يحملونهــا من مكان الى مكان ، حتى يعمروا كل مكان

« ثم حسام بتار ، هو أمنع من الحصون وشــاهق الاسوار

« واخيرا ــ وليس آخرا ــ القصــيد الذى يؤنس ويفيد ، ويستهوى أسماع الحسان الفيد »

ويسترسل شاعرنا الالمانى فى حماسته ، حتى ينتهى الأمر به الى النقمة على حياة المدنية ، والتكبير والتهليل لما ينعم به الفارس البدوى من الحرية :

« دعونى ــ كما أهوى ــ على صهوة جوادى ، واقبعوا انتم فى بيوت المدر وخيام الوبر ! اننى لأنطلق جذلان فى هذا الفضاء الشاسع وليس فوق عمامتى الا النجوم الزواهر . وما زينت السماء الدنيا بمصابيح الا هدى للناس ومتعة للناظرين »

وقد بلغ هذا الشغف بالشرق العربى من جوته غاية مبالغه ، حتى كان يعالج محاكاة الكتابة العربية ، واقامة

حروفها ، ورسم كلماتها ، وتوجيه سطورها من اليمين الى اليسار على خلاف الكتابة الافرنجية . وقد جره هذا الشغف الى التغنى بالقلم العربى المتخذ من القصب . فنظم فيه مقطوعة بعنوان « القلم »

« تخرج الارض من القصب هذه الاعواد للترفيه بها عن العباد

« فاللهم اجعل أصدق المشاعر وألطف الافكار ، تفيض من القلم الذى أخط به هذه الاشعار »



شارلوت فون شتاين «الصديقة المثقفة»

فاصلة

بين الهجرة السابقة والهجرة اللاحقة

كان جوته ـ بعد هجرته الروحية السابقة الى الشرق السامى قبل الاسلام وبعده ـ قد أخذت ترين عليه بعد عام ١٧٧٦ غاشية من الكلال والملل ، من شواغل الوظيفة السياسية والادارية فى بلاط «ويمار» ، ومن حبه للسيدة الرقيقة الاحساس المثقفة ، النجلاء العينين الهيفاء القوام الانيقة الهندام ، وان لم تكن البارعة الجمال « شالوت فون شتاين » ، ذلك الحب الذى لم يشف غلتـه ولم يؤت ثمرته .

وقد كان من هذا جميعه ، أن اشتد شعوره بالحاجة الى الاستجمام والراحة ، واشـتدت به السآمة من بلاد « الشمال » كله حتى صارت هذه السآمة أشبه ما تكون بالمرض ، وأصبح عاجزا عن مغالبة ما ينازعه من الرغبة فى الرحيل الى الشمس والحياة البسيطة الطليقة الباسمة

وكان جوته لايزال يذكر منذ الطفولة تلك الرسوم المحفورة التى يعلقها والده فى بيت الاسرة المجدد ممثلة لمناظر ايطاليا ، ومن بينها الطريق الصخرى الذى ينحدر بين صفحات الثلوج وخمائل الصنوبر الى تلك البحيرات الزرق المحفوفة بشجر الزيتون والليمون . ولكنه حين سأل الدوق - وهما فى « كارلسباد » مدينة الحمامات الحارة فى «بوهيميا» - أن يأذن له فى عطلة طويلة للراحة . لم يذكر له وجهته بل أخفاها عنه وعن حبيبته وسائر اصدقائه .

تعمد جوته السفر خلسة فى الثالث من نوفمبر عام ١٧٨٦ فى الساعة الثالثة صباحا باسم مستعار « جان فيليب مولر Jean Philippe moeller

اما وجهة هجرته فكانت الى « الجنوب » ، الى أرض «ايطاليا» التى قال مشتاقا اليها فى كتابه «ولهلم ميستر» على لسان الصبية اللطيفة « منيون Mignon » هذه المقطوعة التى يرجع نظمها الى عام ١٧٨٤ :

« أتعرف الارض التى يزهر فيها الليمون بعبيره الزكى
« ويضطرم فى دجى أشجارها الوارفة التفاح الذهبى
« وتسرى نسمة حلوة دافئة فى سمائها اللازوردية الصافية
« وينمو فى رباها الآس الناضر والغار الفاخر ؟
« أتعرفها حق المعرفة !!؟
« هناك ، أجل هناك ، أريد أن أمضى ياحبيبى معك ! »

***

ولقد تحقق حلم « جوته » فاحتوته ايطاليا . فأخذ يجول فى نجادها ووهادها ، وعلى ضفاف أنهارها وحول بحيراتها ، وخلال حقولها ووسط مزارعها حيث تخطر

العجول الضخمة وتسرع صفار الحمير محملة ظهورها بالسلال المملوءة ، وقد انتشر الفلاحون والفلاحات هنا وهناك فى « نابولى » و « صقلية » وسهول «لومبارديا» وهم يعملون فى الارض وفى نفوسهم الرضى والابتهاج بالحياة

وفى هـــذه البيئة شـــعر « جوته » باقترابه من « أمنا الارض » ، وأنه يتصرف بكامل حريته فى وحدته ، دون اسم يحرجه ومن غير مهنة تقيده . وقد أبى أن يحدثه دليله المرشد عن التاريخ ، كما أبى الاهتمـــام للكنائس ، بل كانت بغيته الاستغراق هنا فى جنة الطبيعة وفى آثار الحضارة اليونانية الرومانية القديمة .

وقد ترك لنـــا الشاعر هـــذه الانطباعات المزدوجة فى مجموعة من الاشعار أسماها « أغانى روما الشجية »
Romische Elegieen

وقد أجمع النقاد على ان جوته بلغ فيها ذروة هـــذا اللون من الشعر الشجى ، الذى تستعمل فيه الاوزان المعتاد استعمالها فى المرثية ، حتى قال بعضهم : انه لا يذكر فى الادب اليونانى أو الرومانى مثل هذا الجمع بين الفكرة العالية التى تجعل الشعر عظيما ، وقوة الانتقال الشخصى الذى يجعل الشعر مؤثرا

وعلى سبيل المثال ننقل فيما يلى بعض المقطوعات :

المقطوعة الاولى

« أيتها الحجارة ، حدثينى ! أيتها الصروح الباذخة اجيبى! أيتها الطرق، انطقى بكلمة واحدة ! الا تستيقظين أيتها العبقرية ؟.

بلى ، كل شىء حى فى أسوارك القدسيـــة يا روما

الخالدة ، الا فى ناظرى وعند خاطرى ، فما برح الصمت على كل شيء مخيما .

« من يا ترى سيهمس لى هنا ؟

« من أية نافذة سيطالعنى ذات يوم الوجه الحلو الذى يؤنسنى وهو يحدثنى ؟

« ألبس لى ان أهتدى الى الطريق الذى سيدرج فيه وقتى الغالى النفيس ذهابا اليها ، وايابا من عندها ؟

« لم أر حتى اليوم الا بيعا وصروحا ، وأطلالا وعمدا ، كالسائح الحازم الحريص على الفائدة من رحلته . ولكنى سرعان ما أودع كل هذا ، فلا يبقى بعد هذه المحاريب الا محراب واحد ، محراب الحب يقبـــل عليه العارف بأسراره ، المهتدى الى بابه ، المشتاق الى أعتابه

« أنت يا روما عالم ! ولكن العالم بغير الحب لا يكون عالما ، وروما لا تكون روما »

المقطوعة الخامسة

بعد أن استحدث الشاعر علاقة غرامية

« على أرض الآثار تستخفنى حماســة قدسية ، وتحدثنى العصور الخوالى والعصــور الحواضر باللحن الجهير فتؤنسنى . هنا أطالع فكر الأقدمين ، وأقلب بيد الخشوع صفحات أعمالهم فتستجد لى متعة فى كل نهار، أما الليل فيشغلنى فيه الحب بشواغل أخرى . فاذا بات حظى من المعرفة نصفها ، فلقد أصبت من السعادة ضعفها

« وبعد ، أفليس من التعلم والدرس أن يتأمل البصر تكوير نهد كاعب ، وأن تجرى الكف على دقة خصر



الشاعر فى ايطاليا

واستدارة ردف ؟ انى لأفهم حينذاك — لا قبل ذاك — ما الرخام ، وما التماثيل . انى حينذاك لأفكر وأقارن ، وارى بعين تحس ، وأحس بكف ترى

« ولئن سلبتنى الفانيـــة سويعات من النهار فانها تعوضنى عنها ساعات فى الليـــل . وليس الليـــل كله بعناق ، فاننا لنتحدث فيه الحديث الرصين . ثم تأخذها سنة من النوم فتنازعنى اليها ألف فكرة ، وأجدنى أنظم الشعر بين ذراعيها ، وأقسم بأصابعى الماجنة على ظهرها تفاعيل بحر من بحور القريض . وهى فى منامها تتنفس فتضرمنى أنفاسها حتى سويداء قلبى .

والحب يتعهد أبدا مصباحه الوقاد ، حالما بالعهـد القديم الذى أدى فيه مثل هذه الالطاف ، للأسبقين من الولاة الرومانيين »

الشرق الاقصى

أطال شاعرنا جوته الاقامة فى أرض ايطاليا المشرقة حتى ١٨ يونيوعام ١٧٨٨ ثم تكررت زيارته لها عام ١٧٩٠ فلما أن عاد ثانية الى وظيفته فى بلاط « ويمار » عاوده حنينه الروحى مرة أخرى الى الشرق

لقد كان لجوته مقنع واى مقنع فى رحلته الروحية الاولى الى الشرق السامى ، ولكن جوته المفكر العالم هو بعينه جوته المحب الفنان فى نزوعه الى التنقل . ومن ثمة استجاب لما حفزه اليه «هردر» وغيره من ورود مناهل الثقافة الآرية كما يقولون ، فى الادب الهندى

وكان جوته قد اطلع قبيل ذهابه الى بلاط ويمار على ترجمة ألمانية عام ١٦٨١ لما نشره الطبيب الهولندى « أوليفيه دابر Olivier Dapper من البحوث المستفيضة عن الشرق الاقصى . وفى هذه البحوث كان المؤلف يكدس خرافات الهند تكديسا ، معتمدا على الملحمة الهندية

الكبرى « مهابهارته **Mahabharata** » . وقد استوقف شاعرنا جوته منها على الاخص عقيدة التجسد . فعكف على الملحمة يتـابع ما ترويه عن تجسد « الاله فشنو Vichnou » فى صورة الفتى الجميل راما **Rama** ابن ملك اوده . ثم زواج الامير راما من ذات الحسن والجمال « سيتا **Sita**» ، وما كان من نفى « راما » بسعاية امراة ابيه ، ثم طمع ملك الجن « رافانا » ملك الجنوب فى الحظوة بزوجته التى بلغه صيت جمالها فاختطفها على عجلة سحرية حملتها الى سيلان ، ثم قيـام راما الى استخلاص زوجته ، واستجاشته أهالى الهند الجنوبية الاصليين ، وغارته على سيلان وانتصاره بمساعدة ملك القردة « هانومان » وظفـره بملك الجن رافانا وقتلـه وانقاذه زوجته الحسناء التى استهدفت لمحنـة أخرى هى ارتياب زوجها فيها ونفيه لها

***

ولقد نجح شاعرنا جوته فى احياء هذه القصة على الرغم من كثرة أسمائها وتشابك أحداثها ، وكان تناوله للقرد المقدس على نحو مستطرف حببه الى القراء . ولكن شاعرنا يشير فى مذكراته « شعر وحقيقة » الى ان هذه الخلائق المروعة الهائلة العجيبة التكوين ، بعيدة كل البعد عن الحق الذى هو دائما بغيته المنشودة

بيد أن هذا التعرف لآلهة الهند العديدة ، وهذا الاطلاع على مطولات أساطيرهم والتيهان فى شعاب مذاهبهم حيث تختلط الشهوات بالقداسات وتلتقى الارض بالسموات ، قد استولد قريحة شاعرنا ــ الى جانب « الفاتحـة المسرحية » فى فاوست ــ جملة من الاساطير الهنـدية صاغها فى أروع صورة وأبدع نظم ، بحيث صارت من

فرائد موشحاته القصصية من النوع المعروف عند الالمان باسم Ballade وفى مقدمتها جميعا أسطورة « الاله والراقصة » :

« هبط « مهاديفا » رب الأرضين للمرة السادسة وجعل نفسه واحداً منا ، وشاء أن يبلو أفراحنا وآلامنا فارتضى هذه الدنيا سكنا ، وخضع لكل شىء .

وبعد أن استطلع المدينة استطلاع السائح ، وترصد الاكابر ، ولاحظ الاصاغر ، غادر المدينة فى غبش المساء ، وابتعد . وفى ظاهر المدينـــة حيث تقوم المنازل النائية الاخيرة ، لمح صبيـــــة جميلة محمرة الخدين من الطلاء ، صبية من البنات الساقطات

ـ سلامى اليك أيتها العذراء

ـ شكرا على هذا الشرف ! انتظر ، سأخرج اليك فى الحال

ـ ومن تكونين ؟

ـ راقصة وهنا بيت الحب

ثم نشطت للرقص ورنت صنوجها ، ودارت فى لطف ، ومالت وتثنت ، ومدت له باقتها خاطبة وده . وكانت فنانة فتانة فاجتذبته الى عتبة الباب ثم الى خدرها :

« أيها الغريب الجميل ، لسرعان ما ينير كوخى . امتعب أنت ؟ انى هنا رهينة بالتسرية عنك وتدليك قدميك الموجعتين ، لك كل ما تريد من راحة أو نشوة أو مداعبة »

وأقبلت على الأوجاع المتصنعة تأسوها

وابتسم الاله مغتبطا بأن يرقب هـــذا القلب الآدمى الممعن فى الفساد ، فطالبها بما تؤديه الاماء من خدمات ،

فاذا هى تتهلل لها وتزيد ابتهاجا بها ، واذا هذا الذى كان اول الامر فى الفتاة تطبعا يصبح وهى لا تشعر طبعا غير متكلف . وكما ان الزهرة تخلفها الثمرة ، فكذلك الاخلاص اذا تفتح فى القلب كان الحب غير بعيد

وقد شاء هذا القاضى الأعظم المتحكم فى الرفيع والوضيع أن يشتد فى ابتلائها باللذة والروعة والالم ، فقبل خدها المطلى بالحمرة فأحست عندئذ لواعج العشق، وهامت وجدا ، وفاضت دموعها للمرة الاولى ، وجثت عند قدميه . وما تجثو اليوم – وا أسفاه – للشهوة أو للذهب ، ولكنما خذلتها أوصالها المهيضة المنهوكة

واسبل الليل أستاره الكثيفة . وفى جنح الظلام طابت الاعراس المسكرة فى فراش الغرام . وبعد موهن من الليل أخذها النعاس بين العناق والقبل . ثم تنبهت مبكرة بعد هجمة قصيرة ، فالفت مضيفها الحبيب على صدرها ميتا ، فولولت وانكبت عليه . ولكن هيهات أن توقظه

وسرعان ما حملوا الجسد الهامد الى المحرقة .

وترامى الى سمعها صوت الكهان وتراتيل الجنازة فأجهشت ، وانطلقت مسرعة ، وشقت الجمع

« من أنت ؟ وماذا جاء بك الى المحرقة ؟ »

فانطرحت الصبية على النعش وملأت الفضاء بعويلها :

« زوجى ، أريد زوجى ، سأسعى اليه حتى القبر . أترانى مبصرة جماله الاسنى يتساقط رمادا ؟ لقد كان لى أكثر مما كان لأية امرأة سواى. وا أسفاه ! ليلة نشوة واحدة »

هذا والكهنة يرتلون : « نحن نحمل الكهول بعد ان استنفدوا أيامهم وأملى الاجل لهم . نحن نحمل الشباب

فى ريعان الجمال قبل ان يخطر الموت لهم فى بال »

ثم يقول الكهنة : « هذا الفتى لم يكن زوجك . انما انت راقصة ، وليس لك من حق . لا يتبع الجسد الى ملكوت الموت الصامت الا الظل وحده ، لا يتبع الزوج الا الزوجة وحدها . هذا واجبها وهذا فخارها معا . اعزفى ايتها الأبواق لحن النعى المقدس . ويا أيها الارباب الخالدون ، أدعوا لجواركم من جوف اللهب هذا الفتى فخر زماننا »

كذا انشد الجميع ، فزادوا قلبها التياعا غير راحمين ، فاذا هى تندفع ممدودة الذراعين ، وتلقى بنفسها فى الضرام المودى الى الموت الزؤام

ولكن .. ها هو ذا الاله الفتى يرتفع من جوف اللظى معانقا حبيبته . كذلك تبتهج الآلهة بندم الخاطئين . وكذلك بأذرع من النار المطهرة يرفع الخالدون الارواح الضالة الى عليين

***

والى جانب هذه الاساطير الهندية المروعة ، المتصلة بالآلهة والشياطين وأنصاف الآلهة ، يحلو لشاعرنا « جوته » أن يطالع حكايات الحكيم البرهمى « بيدبا Pidpai » التى وضعها على ألسنة الحيوان لملك الهند « دبشليم » فى القرن الرابع قبل الميلاد . ثم بلغ من شهرتها أن رغب فى طلبها فى القرن السادس بعد الميلاد كسرى أنوشروان ملك الفرس الذى سأل عنها فأشار عليها وزيره « بزرجمهر » بأن يندب لهذه المهمة الاديب المتطبب المجوسى « برزويه Burzouyeh » الذى أكب على نقل الكتاب من اللسان الهندى الى اللغة البهلوية وهى الفارسية القديمة . وعن هذه الترجمة البهلوية نقلها

الى العربية عبدالله بن المقفع فى عهد الخليفة المنصور العباسى فى القرن الثامن الميلادى . ومن ذلك الحين تعددت ترجماتها الى مختلف اللغات ، فترجمت الى الفارسية بأمر أمير خراسان نصر بن نوح . كما ترجمت الى العبرية واللاتينية منذ القرن الثالث عشر ، والى الفرنسية منذ عام ١٧٢٤ مما يدل على وقوعها موقع القبول عند الكافة .

ولكن الجدير بالذكر انها عند العرب والفرس خاصة ، لها مكانة لا تعدلها مكانة ، لمـا تنطوى عليه من الخبرة بالحياة والحكمة العملية . ويعلل «جوته» نقل المسلمين من العرب والفرس هذه الحكايات دون غيرها عن الهند، بأن ذلك راجع الى عدم اتصالها بالوثنية الهندية ، التى تنفر منها أذواقهم المترفة ، نفور عقولهم من فلسفة الدين الهندى المعوصة

الشرق الصوفى

فى العربية والفارسية

المتصوفة فى جميع الأزمان تغلب عليهم نشوة روحية ، فهم فى شبه غيبة عن عالم الحس ، مستهلكون فى شوق غامض الى التجرد عن أشخاصهم والاندراج فى حقيقة كلية عليا ، هى الله المحيط بكل شىء . ومعلوم أن الكافة من المتصوفة المسلمين فى كلامهم عن الله يعنونه دائما بقولهم : « الحق » ، ويعرفون المطلب الأسمى الذى ينشده السالك فى طريقهم بأنه « الفناء فى الحق »

وهذا الشوق يأنسه فى نفسه كل من ينظر الى الوجود نظرة المتصوفة أو بعبارة أصح يحس به احساسا تصوفيا ، لأن التصوف احساس أكثر منه عقيدة . ومن ثمة كانت وجهتنا وجهة المعنى مع تعميم القول من غير تقيد بمصطلح أو تعرض لمختلف الطرق

فالوجود كله صادر عن الله . ويسمون هذا الصدور بالتجلى . وتتجلى وحدانيته سبحانه فى خلائقه التى

لا يحصى كثرتها الا هو . فهو حقيقة الحقائق وعين الوجود ، ومنه كل موجود ، من شـــاهد ومشهود ، وروح ومادة ، ونور وظلمة .

وكما ان حركة التنفس شهيق وزفير ، وحركة القلب بسط وجذب ، وكل فعل من الافعال له رد ، فكذلك هذا التفصيل فى أفراد الخلائق المترتب على الايجاد فانه لا يفتأ متطلعا الى الاتحاد . وناموس الجب هو السائد فى عوالم الروح والنبات والجماد أيضا حيث يتبدى فى صور مختلفات كالجذب والثقل النوعى والمغنطيسيـــة والتزاوج الـكيميائى

ولما كان المتصـــوفة فى جملتهم يحسون احســـاس الشعراء الى جانب روحهم الدينى ، فهم يشهدون لمحة الهية فى كل شىء : فى رواسى الجبال ومعتلج الأمواج وعصف الاعصار يشهدون جبروته . وفى أعماق الفضاء يزدان بالأنجم الزهراء ، وفى امتداد الصحراء تمتد فى رأى العين الى غير انتهاء ، يشهدون عظمته . وفى الوان المروج الحاليـــة بالنوار وشتى الازهار ، وفى مناغاة الجداول ونضرة الخمائل ، وفى نصاعة الثلوج على الذرى ورفيف السنابل الذهبية فى نور الضحى وترقرق الأمواه الفضية فى ضياء القمر ، يشهدون جماله ، وفى ابتسامة الخفر وحمرة الخجل واطراقة الطرف من الفتاة العذراء فى هواها العذرى للفتى ، وفى قبلة المحب للحبيبة فى لهفة غير مريبة ، وفى عناق الزوجين تمازجت نفساهما وتجاوب قلباهما ، وفى ضحكة الطفل فى لعبه البرىء وفى وفاء الصديق للصديق وفى عون الرفيق للرفيق ، يشهدون حبه . فهم أبدا فى طلب المعانى ، حتى أصبحت علمـا كله شاهد على ما وصفناه من شهودهم معنى الربوبية عليهم فعرفوا باسم « أهل المعانى » . وشعر المتصوفة

فى كل شىء . قال شيخهم ابن الفارض :

تراه ـ ان غاب عنى ـ كل جارحة
فى كل معنى لطيف رائق بهج

فى نغمة العود والناى الرخيم اذا
تألفا بين ألحان من الهزج

وفى مسارح غزلان الخمائل فى
برد الأصائل والاصباح فى البلج

وفى مساقط أنداء الغمام على
بساط نور من الأنوار منتسج

وفى مساحب أذيال النسيم اذا
أهدى الى سحيرا أطيب الأرج

وفى التثامى ثغر الكأس مرتشفا
ريق المدامة فى مستنزه فرج

***

والواصلون منهم اذ يشهدون الله فى آيات الخلق ينسون الخلق جميعا ويذكرونه ، ويزهدون فى العرض المعروض الى الجوهر المكنون . ويغيبون عن عالم الشهادة الى عالم الغيب ، وعن عالم الاشباح الى عالم الروح . فهنا الخير كله والجمال كله . وقد ذهبوا فى استعلائهم على الحسيات الى قول بعضهم : « ان التصوف هو العصمة عن رؤية الكون » . وعندهم ان التماس الجمال فى الخارج تكلف ، لأن الروح مشتملة عليه . والعاقل من يعكف فى حرم روحه يستزيدها من الخير والجمال ، فيوسع بالاحتجان والتوفر نطاق وجوده ، وبدلا من توزع الهمة بين المتعدد ، يحصرها فى الواحد ، فانه فى هذا الفيض الروحى عارج الى مصدر الفيوض وحقيقة الوجود

وهذا الشوق عند المتصوفة افاد العاطفة الدينية فنزهها عن المقايضة والمساومة ، وارتفع بها الى أوج الروحانية . فلم تعد علاقة العبد بالرب مجرد الخشية من عذاب المنتقم الجبار ، ولا الطمع فى ثواب الغنى بل الحب الخالص ، كما فى قول رابعة العدوية : « الهى : ما عبدتك خوفا من نارك ، ولا طمعا فى جنتك . بل حبا لك ، وقصد لقاء وجهك » . وفى دعاء آخر تبتهل رابعة الى الله أن يعطى ما كتبه لها من نصيب فى الدنيا لأعدائه . وما كتبه لها فى الآخرة لأوليائه ، فانه هو حسبها

وهذه المحبة للذات الالهية تستولى على متصوفة الشرق حتى تتجاوز الحد ، وتضطرم اضطرام العشق . وتتلون بوهجه . فاذا هم يشكون برح الغرام ، واحتراق القلب بلوعجه ، وكيف أضنى أجسادهم وبرى عظمهم ، وقرح جفونهم بالبكاء ، وأطال ليلهم بالسهاد . ثم يذهبون أكثر من ذلك الى التشكى من التدلل والصد وتمنى القرب والوصل . وهذا كله حتى هنا سائغ على سبيل المجاز ومع كثير من التجوز ، الا انهم ليحيرون اللب حقا ويتعدون كل معقول حين يعرضون للمحبوب بالوصف : فاذا بالجبين المسفر ، والغدائر المسدلة ، والخد الأسيل المورد ، وفتور الطرف الأدعج ، وما الى ذلك مما هو أشبه بالغزل والتشبيب ، كقول محيى الدين بن عربى :

حقيقتى همت بها	وما رآها بصرى
ولو رآها لغدا	قتيل ذاك الحور
فعندما أبصرتها	صرت بحكم النظر
فبت مسحورا بها	أهيم حتى السحر
كأنما أنفاسها	أعراف مسك عطر
كأنها شمس الضحى	فى النور أو كالقمر

ان اسفرت أبرزها　　نور صباح مسفر
او سدلت غيبها　　سواد ذاك الشعر

***

والحب حاجة قلبية لبنى الانسان على السواء ، كانما يتنفسه الاحياء مع الهواء ، وانما يتوجه به الزاهد عن الدنيا الى الذات العليا ، فيكون التغير فى المرتبة لا فى طبيعة الشعور ، ومن ثمة هذا الاتفاق فى التعبير بين شعر التصوف وشعر الغزل . وانه لتمر بالقارىء الابيات لولا معرفة ناظمها لتشابه عليه الامر ، ففهمها على غير وجهها . بل ان المتصوفة أنفسهم ليتمثلون فى مواجدهم وحلقاتهم بأشعار العذريين ، ومنهم من يروون ان مجنون بنى عامر رؤى فى المنام فقيل له ما فعل الله بك ؟ فقال : « غفر لى وجعلنى حجة على المحبين » . فالحب عندهم كل شيء وقد امتلأت به قلوبهم

والحب عاطفة مركبة القوى . فالمرء يحب للحب ، ثم لشخص المحبوب ، وكذلك ليحس أنه محبوب . وقد لمست رابعة العدوية هذا التركيب فى قولها :

احبك حبين حب الهوى
وحبا لأنك أهل لذاكا

واما ما ذهب اليه الامام الغزالى من أنها أرادت بحب الهوى حبها لله لاحسانه اليها وانعامه عليها بحظوظ العاجلة فلا نحسبه التفسير الارجح ، لما هو معروف من رفضها الدنيا وزهدها حتى أصبحت فى أخريات أيامها كالخلال البالى

ويتوسل السالك الصوفى لحصول الحال التى يشتاقها بالزهد والتقشف ومجاهدة النفس . ويقول الشيخ على ابن سينا : « فاذا بلغت به الارادة والرياضة حدا ما ، عنت

له خلسات من اطلاع نور الحق لذيذة كأنها بروق تومض اليه ، ثم تخمد عنه . وتكثر عليه الفواشي اذا امعن في الارتياض ، ثم انه ليوغل في ذلك حتى تفشاه في غير الارتياض . وتبلغ به الرياضة مبلغا ينقلب له وقته سكينة ، فيصير المخطوف مألوفا ، والوميض شهابا بينا ، وتحصل له معارفة مستقرة كأنها صحبة مستمرة ، وينتهى بأن يصير سره مرآة مجلوة يحاذى بها شطر الحق . وحينئذ تدر عليه اللذات العليا . ويفرح بنفسه لما يرى بها من أثر الحق . ويكون له في هذه الرتبة نظر الى الحق ونظر الى نفسه . وهو بعد متردد . ثم انه ليغيب عن نفسه فيلحظ جناب القدس فقط . وان لحظ نفسه فمن حيث هى لاحظة . وهناك يحق الوصول »

وتلك حال من السعادة كما يقول « ابن طفيل » لا يقوم بها وصف ، لأنه من طور غير طورها وعالم غير عالمها . ولا يمكن اثباتها على حقيقة أمرها ، لأنه متى حاول احد ذلك وتكلفه بالقول أو الكتابة استحالت حقيقتها ، اذ أنها في اكتسائها بالحروف والاصوات ، وتقريبها من عالم الشهادة لا تبقى على ما كانت عليه بوجه ، واختلفت فيها العبارات اختلافا كثيرا ، وزلت به أقدام قوم عن الصراط المستقيم . وظن بآخرين أن أقدامهم زلت وهى لم تزل . وانما كان ذلك لأنه أمر لا نهاية له في حضرة متسعة الاكناف محيطة غير محاط بها . غير أن تلك الحال لما لها من البهجة واللذة والحبور لا يستطيع من وصل اليها وانتهى الى حد من حدودها أن يكتم أمرها أو يخفض سرها ، بل يعتريه من الطرب والنشاط والمرح والانبساط ما يحمله على البوح بها مجملة دون تفصيل . ولقد اكتفى الغزالى عند وصوله الى هذه الحال بالتمثل بهذا البيت :

فكان ما كان ممـــا لست أذكره
فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر

ووقف غيره ممن ادبتهم المعارف ، وحذقتهم العلوم عند حد . أما البعض فقالوا فيها بغير تحصيل مقالات واخذوا بها .

ومعظم الاشـعار في وصف هـــذه الحال فيها جماح واجتراء . والمتصوفة أنفســهم يعرفونها بالشـطحات . ونجتزىء هنا بترجمة مقطوعة من ديوان المثنوى لجلال الدين رومى يصور فيها معنى التوحيد ، على حد ما ذهب اليه البعض من أن لفظ « أنا » غير جائز لغير الله لأنه وحده الموجود بذاته ولا وجود الا به :

« طرق أحدهم باب المحبوب . فهتف به من البيت هاتف : « من الطارق ؟ » فأجاب : « أنا » فقال الهاتف : « لا يتسع هذا البيت لى ولك » . فانطلق المحب الى الخلاء واختلى بنفسه صائما مصليا . ثم عاد بعد عام وطرق الباب مرة أخرى . فهتف الهاتف كذلك : « من الطارق ؟ » فقال المحب : « انت » ، وعندها فتح الباب

***

وهذا الشوق من المحب للفناء فى المحبوب له أيضا نصيب من الشوق الى المعرفة . فان الباحث ــ فى رأى الغزالى ــ اذا اعتمد على المحسوسات لم يلبث أن يداخله الشك فيها . فانه لينظر مثلا الى الكوكب فيراه صغيرا ، وتدل الأدلة الهندسية على أنه أكبر من الارض فى المقدار . فان هو عول على المعقولات فما يدريه ؟ لعل وراء ادراك العقل حاكما آخر اذا تجلى يكذب العقل فى حكمه ، كمـا تجلى حاكم العقل فكذب الحس فى حكمه . وعدم تجلى

ذلك الادراك له لا يدل على استحالته . وعلى هذا يكون جميع ما تعتقده فى يقظتك بحس أو عقل انما هو حق بالاضافة الى حالتك

ويمكن أن تطرأ عليك حالة أخرى تكون نسبتها الى يقظتك كنسبة يقظتك الى منامك ، فاذا أوردت تلك الحالة تيقنت ان جميع ما توهمت بعقلك خيالات لا حاصل لها . ولعل تلك الحالة هى ما تذهب الصوفية الى انها حالتهم اذا غاصوا فى أنفسهم ، وغابوا عن الحسيات والعقليات ، وتوصلوا من طريق التواجد ثم الوجد الى تحقيق وجودهم بالفناء فى الحق سبحانه ، فان هذا الذى فاتهم ادراكه بظاهر الحس وبرهان العقل تحصل لهم معرفته بالملابسة والذوق

هذه هى الصوفية بوجه عام . وقد تعمق شاعرنا الالمانى جوته فى دراستها فيما درسه من الشعر الفارسى

***

والشعر الفارسى تغلب عليه الروح الصوفية فى جملته . ومهما يكن من تفاوت شعرائهم فى ذلك ، فلابد أن نستبعد من هذا المجال علما من أعلامهم وهو ابو القاسم الفردوسى (المولود سنة ٣٢٩ بالتاريخ الهجرى ـ القرن العاشر الميلادى) . ولاغرو ، فهو صاحب ملحمة الشاهنامة (١٠١٠م) التى تزيد أبياتها على الخمسين ألف ، والتى تناول فيها قصص ملوك الفرس المجوس الاقدمين . وكانت قد جمعت نثرا فى لغتها الاصيلة الفهلوية وهى الفارسية القديمة فتعرض الشعراء لنظمها فى الفارسية الحديثة . وممن سبقوا الى ذلك « أبو منصور محمد بن أحمد الدقيقى » الشاعر الذى نظمها امتثالا لأمر الملك نوح بن منصور السامانى « ٣٦٥ ـ ٣٨٧ هـ » . وكان آل سامان الذين استقلوا بخراسان ينسبون أصلهم العجمى الى « بهرام

جوبين » القائد الفارسى الذى ثار على كسرون برويز ، وكانوا فى عصبيتهم يعملون على احياء تواريخهم القديمة، ويشجعون الشعراء على النظم بالفارسية ، ولقد نظم الدقيقى الشاعر من شاهنامته نحو الألف بيت ، ثم انتهى عمره على يد عبد من عبيده اغتاله ليلا . فتطلع الى الاضطلاع بهذا العمل العظيم « أبو القاسم » الفردوسى الذى يروى ذلك فى مقدمة شاهنامته فيقول : (فلما يئس قلبى من الدقيقى ، توجهت تلقاء ملك العالم ، لعلى أظفر بهذا الكتاب - قصص ملوك الفرس - فأنظمه . سألت أناسا لا يحصيهم العد ، وأنا أوجس خيفة من تقلبات الزمان ، وأخشى أن لا تمتد بى الحياة فأتركه لغيرى . وكان فى المدينة صديق لى كأنى واياه نفس واحدة فقال : « أنا كفيل بهذا الكتاب الفهلوى فلعلك لا تنام عنه » . وأحضر الى الكتاب ، وقال : « اذا يسر الله لك نظم كتاب الملوك فأهده الى الملوك » . وكان محمود الغزنوى الذى ولى « خراسان » من قبل السامانيين قد استقل بها عام ٣٨٤ هـ وكان شديد الاهتمام بنظم كتاب الملوك ، فشخص أبو القاسم من بلده طوس الى غزنه ، وأبلغ ما نظم الى السلطان وهو قصة « رستم وسهراب » فلما عرضت على من كان حاضرا مجلسه من الشعراء تحيروا من بلاغة نظمها . فعهد اليه السلطان بانجاز نظم الكتاب كله ، فنظمه فى البحر المتقارب . وكان السلطان كلما سمع شعره يردد قوله « سمعت هذا القصص مرارا ، ولكن نظم الفردوسى شىء آخر » حتى زعم الزاعمون انه قال له مرة « انك صيرت مجلسنا فردوسا » ولقبه منذ ذلك الحين بالفردوسى

***

واذا كان بديهيا أن لا يطلب شاعرنا « جوته »

الصوفية فى ملحمة « ملوك الفرس » للفردوسى ، فانه من البديهى اكثر من ذلك ان لا يطلبها فى قصائد المديح التى كان «الأنورى » يصوغ قلائدها للسلطان سـنجر ملك خراســان وغيره ممن كان يتعلق بأذيالهم من الكبراء ، ويخلبهم بسحر الملق والثناء . كما كان طبيعيا ان لا يلتمس مجانى ازاهرها النورانية عند صاحب « حديقة الورد » بقطوفها الأرضية الدانية « سعد الدين الشيرازى » او أمثاله من أصحاب الامثال الخلقية والحكمة العملية

وانما ورد جوته الصوفية فى مناهلها التى استطاع الوقوع عليها عند المتصوفة من شـعراء الفرس ، الذين كثيرا ما كانوا يصطنعون القصص لبيان طريقتهم وتصوير لطائف احاسيسـهم ودقائق مفاهيمهم . ونذكر منهم « ابو عبدالله الانصارى » الشاعر فى قصته المنثورة عن « يوسف وزليخا » ، وشـاعر الحب والألم « نظامى الكنجوى » الذى يتابع فى شعره القصصى مجرى المقادير فيما كان بين الأمير الساسانى خسرو برويز والاميرة الارمنية شيرين ، وما كان فى الرواية العربية بين «ليلى والمجنون» وما دخل بين الالفين العاشقين من عناد الأسرة وملابسات البيئة ، وحكم العادات ولعب الأهواء ، وصروف الدهر تفرق بينهما ثم تردهما ، ولا يزالان بين فراق ولقاء فى ظروف شائقة عجيبة حتى يحم الفراق الذى ليس بعده تلاق ، والشاعر « فريد الدين العطار » صاحب المثنوية الصوفية « منطق الطير » و « تذكرة الاولياء » وقصة « جل وهرمز » ، والشاعر « جلال الدين رومى » الذى نشأ فى قونية حاضرة دولة الروم السلجوقيـة وتلقى الصوفية على الشـيخ الدرويش « شمس التبريزى » حتى اشتهر ديوانه باسم « ديوان شمس التبريزى » وانشأ بعد موت أستاذه طريقة المولوية ، ونظم آيتـه



حافظ الشيرازى
أكبر الشعراء الغنائيين
فى الشرق الفـــارسي

الكبرى « المثنوى المعنوى » وهو هنا روح لا تأنس الى الواقع ، اذ تجد فى كل حدث من احداثه معضلة ، فتلتمس حل الفازه ، فتجىء الحلول الفازا جديدة تحتاج الى حلول جديدة ، فيلوذ آخر الأمر بمذهب التوحيد المطلق، واخيرا ذلك الشاعر الناثر الذى جمع الفنون كلها من دينية وفلسفية وعلمية فى شعره ونثره « عبد الرحمن الجامى » الذى اتخذ من قصته « ليلى والمجنون » ترجمانا عن آرائه فى التصوف فى كثير من المواقف

ولكن شاعرنا الالمانى لا يجد صنوه وشقيق روحه الا فى حافظ الشيرازى المتوفى سنة ٧٩١ هـ (١٣٨٩ م) ؛ فهو « شاعر الغزل » الاكبر الذى جمع فى غزله الحسية والروحية ، وبلغ من نشوة الفرس وطربهم بما نظمه فى الحب والجمال أن لقبوه « لسان الغيب وترجمان الاسرار »

ملتقى الشرق والغرب

لا الشرق شرق ولا الغرب غرب ، بل هما على البعد يلتقيان ، كلما تلاقت بالفكر العالى والشعور العميق من هنا ومن هناك نفسان عظيمتـــان ، تطاول ما تطاول بينهما الزمان ، وتدابر ما تدابر بهما المكان

وليكن فى هذه المرة العظيمان الشـقيقان : حافظ الشيرازى أحب شعراء الفرس ، وجوته كبير شعراء الالمان

ولقـد طلع الاخير فى أفق الحياة من ناحية الغرب ، بعد ان غاب زميله فى الشرق بنحو أربعة قرون . وما كاد جوته يحصل فى عام ١٨١٤ على ديوان الشاعر الفارسى الذى كان قد ترجمه بأكمله للألمانية « البارون فون همر **Baron von Hammer Pargstall** حتى رأى نفسه مجلوة فى مرآته ، وآنس فيه مشـــابه جمة من طبيعتـــه وملكاته وحياته

كلا الرجلين لا دعوى له فى عراقة النسب والشرف

الموروث ، وكلاهما طالب متعة يجمع فيها بين الحس والروح ، وكلاهما صـــاحب اثرة لم يشـــغل خاطره الى حد الاعنات والجهد بأحداث عصره وتقلباته

فهذا «شمس الدين محمد» كان أبوه من اصفهان فنزح الى شيراز واثرى فيها من التجارة ، ولكنه قضى نحبه واحوال تجارته مضطربة وزوجه وابنه فى املاق ، حتى اضطر الفلام الى السعى فى كسب قوته بعرق جبينه . بيد أن الفتى الذكى الفؤاد لم يعدم الوقت والوســيلة للذهاب الى مكتب من المكاتب المجاورة للتعلم وحفظ القرآن . ومن ثمة تسمى فى أشعاره باسم « حافظ » . ولم يلبث أن عالج قرض الشعر فلم يوفق فى البـــداية توفيقا يذكر ، حتى كان فى ذات ليلة ــ كما تصوره لنا الرواية ــ يتهجد فى ضريح ولى من أولياء الله قائم على رابية فى سواد شيراز . فاذا بالامام على يدخل عليه ، ويناوله مطعما لم يذقه من طعام الخلد ، ويقول له : «انك قد أوتيت من اليوم موهبة الشعر ومفاتيح العلوم»

واتصل حافظ بكافة الملوك الذين تعاقبوا فى أيامه على ملك شيراز ، على ما كان بينهم من منازعات . فاتصــل بالشاه « جمال الدين أبو اسحق » من آل « اينجو » وكانت مدة حكمه عشر سنوات ٧٤٣ــ٧٥٣ هـ (١٣٤١ ــ ١٣٥٣ م) ، كما اتصل بمن غلبوهم على الملك من آل المظفر مثل « مبارز الدين محمد » وابنه « جلال الدين المعروف بالشاه شجاع » حتى قضى عليهم الفاتح المغولى الجبار « تيمور » (١)

***

وكان الشاعر « حافظ » شديد الحب لشيراز موطنه ،

(١) تيمور معناها فى لغتهم : الحديد ؛ ويذكر اسمه احيانا تيمور لنك ومعنى لنك : الاعرج .

لا يمل التغنى بنهرها السلسال وخمائلها المتضوعة ، ومن ذلك قوله : « هات أيها الساقى كل ما بقى لديك من راح ، فهيهات أن تجد فى جنة الخلد مراشف سلسبيل مثل نهر ركناباد او خمائل ورد مثل محلة المصلى » . ولقد توالت عليه الدعوات من والى بغداد وملوك الهند يستقدمونه بعد أن جابت أشعاره اليهم الآفاق ، ووقعت من نفوسهم موقع النفائس والاعلاق . ولم يكن الشاعر فى هذه الاثناء جميعا بالمطمئن الى ما هو فيه ، أو بالجاهل ما هو ملاقيه عندهم لو انه لبى الدعوة وأنفذ الزيارة . ولكنه لا يطيق فراق شيراز . فهو يزجى اليهم المعاذير فى ارق الشعر ، مستعفيا من أول الأمر دون أدنى روية واعمال فكر . ولقد هم مرة ولكنه عدل فى النهاية فكانت الأولى التى هم فيها والاخيرة . ان شيراز تقيده الى تربتها ، ولا تسمح له بالفكاك حيا أو ميتا : « نسيم المصلى ونهر ركناباد يحرمان على المسير والسفر »

ومع هذا ، فالمدينة التى كلف بها الشاعر وأشرب قلبه حبها، قد حوصرت مرات، واختلفت عليها أيدى القابضين زرافات، وضرجها بالدماء فاتح، وعمرها باللهو والقصف ثان . وسامها الزهد ثالث . وقد شهد حافظ الاقيال والامراء واحدا بعد الآخر ، يرتفعون الى عقوة الملك ثم يزولون ، وتعاقبت على سمعه وبصره المآسى الفاجعة والافراح الصاخبة والتماع القنا وأصوات الوغى وقيام دول وانهيار دول ، فأى صدى لهذا فى شعره ؟ لا شىء يذكر الا أفاويق من المديح المسرف لهذا الملك ثم لذاك والاشادة بمفاخر هذا النصر وسواه ، والتنويه ببسالة هذا القائد وغيره ، كما هو المرتقب من شاعر البلاط الخليق بهذا الاسم

وكان جل ما يعنى « حافظ » فى تقلب الملوك على

دست الحكم ، موقفهم من أباحة اللذات أو تحريمها . فاذا غلب منهم على شيراز ذو جهامة وصرامة مثل « مبارز الدين » الذى أسموه « المحتسب » لشدته فى الاحكام فأغلق الدساكر ومنع جهـــد المستطاع شرب الخمر ، سمعت حافظا ينفث شكاته فى قصائد عدة تتمثل فيها الشاعر يساند نفسا تتساقط حسرات ، ويغالب من سخطه عواصف ثائرات ، فيجتمع من هذه وتلك مزاج بديع من الوجد اللاعج والسخر اللاذع . كما ترى فى قوله : « مهما تكن الراح تورث الافراح ، والنســيم يستقطر شذا النسرين ، فاياك وشرب العقار على نغم الاوتار ، فان المحتسب قائم لك بالمرصاد . خبىء الكأس فى أردان عباءتك المتقشفة المرقعة ، فان زمانـنـــا كعين الابريق يسكب دما . واغسل خرقة الدرويش التى أنت لابسها بالدمع من بقع الخمر . فهذا موسم الورع وأوان الزهد » . ثم قوله ينعى ابنة الكرم ويندبها ندب الثاكل اللاهف : « يا ليت انهم يفضون الاغلاق عن الحان ، فاذا أمورنا المعقدة قد انحلت وصرنا فى أمان ! ألا جزوا شعور الاوتار حدادا على الصرف العقار ! وسطروا الـكتب تعزية فى ابنة العنب . وليذرف عليها الندمان من جفونهم دما . هم أوصدوا الابواب على بيوت الصهباء . فاللهم نعوذ بك أن يفتحوها على التزوير والرياء »

فلما أن تغير العهد ، وتبدلت الحال غير الحال بولاية ولى العهد الشاه شجاع ، وعاد اللهو الى مجراه وفتحت الحانات الابواب وازدهرت مجالس الشراب ، احتفل بها حافظ متهللا :

(طرقت مسمعى سحرا بشرى من هاتف الغيب : « هذا دور الشاه شجاع . فاشرب الراح شجاعا » . لقد غبر العهد الذى كان فيه أهل النظر يفترقون ، وعلى

السنتهم كلام كثير فلا تنبس بالكلمة الواحدة لهم شفة . لسوف ننشد هذه القصة على نغم الاوتار ، فتجيش لسماعها مراجل صدورنا . ولكن ، مالنا وذاك . ان الملوك ادرى بشئون الملك . وانت الفقير العاكف ياحافظ ، فأمسك عن الكلام وعش بسلام)

وفى مقطوعة اخرى :

« قسما بما للشاه شجاع من أبهة وسلطان وجلال ، ما انازع أحدا على جاه ولا مال ، ولكن ألا ترى لهذا الراقص اليوم على نغم الاوتار . وكان بالامس يحرم السماع على الندمان والسمار ! »

ويندفع الشاعر وقد أخذته هزة الطرب فى نشوتين من سكر وفرح ، شامتا ساخرا ، ومسبحا شاكرا فى منظومة فريدة : (هلل العود : « أين المعترض المنكر ؟ » . وقهقهت الكأس : « أين المانع الناهى ؟ » . ألا فاطلبوا طول العمر للشاه ، ان كان طيب الحياة مطلبكم . هو رب الجود والعطاء ، والكريم ذو الأيادى البيضاء ، مظهر لطف الأزل ، ونور عين الامل ، جامع العلم والعمل ، حياة الوجود : الشاه شجاع)

وفى هذه المقاطيـــع التى أوردناها ما يكفى لتعريف القارىء خصائص شعر حافظ . فهو جميل السبك مصقول الحواشى ، بليغ الايجاز ، متألق الوشى براق يبهر الابصار ، رخيم اللفظ منغوم النظم يسحر الاسماع ، حلو الاشارة لطيف الحس يفعل بالالباب فعل السحر

***

ولا نحب أن نقف بالقارىء عند الصورة التى رسمناها لحافظ فى شبابه من حيث استجابته للمرح والطرب ، فنستدرك عليها حرصا على استكمالها بالتنبيه الى انه

كان شديد الولع بالدرس والتحصيل . فهو الى جانب حفظه القرآن عن ظهر قلب قد تضلع من علوم الدين واللغة ، وقرأ على أكبر المشايخ : الكشاف للزمخشرى ، ومطالع الأنوار للبيضاوى ، ومفتاح العلوم للسكاكى ، والمصباح وغيرها . فضلا عن كتب الشعر وفصول الأدب وأصول النقد ، حتى ليقول عن نفسه : « لم يجتمع لحافظ من الحفاظ مثل ما اجتمع لى مع القرآن من لطائف الحكماء » . وكان شاعرنا الفارسي يجيد العربية كما تشهد قصائده باللغتين مجتمعتين أو مستقلتين . وقد خلف أشعارا جمعت بعد وفاته فى ديوان كبير بينها المزدوج والمقطعات والقصائد والرباعيات ، وذلك الضرب من النظم الذى يسمونه ألغزل أخص ما حذقه حافظ

ومع أن أشعاره فى معظمها تدور حول الربيع والورد والبلبل والخمر والصبا والجمال ، فان الشراح من المتصوفة وغيرهم يذهبون الى أن هذا الظاهر من الصور الجميلة وراءه معان باطنة عميقة الروحانية . وللشاعر فى حقيقة الامر نفس تصوفية ، ونزوع الى النظر فيما وراء التعاليم الخارجية . وهو يطالع فى عالم الشهادة المعانى الغيبية ، ويستجلى الله ذا الجلال فى كل شىء . وهو يقول ان العبادة بالقلب خير وأولى من مجرد القيام بالفرائض العملية وترديد الذكر على طرف اللسان . ومن ثمة كان دائم الوقوع فى شيوخ الدين والمتصوفة الزاهدين ، يتهم ظاهرهم ، ويكشف وراء العبادات والمراسم عن زيفهم ، ويغمزهم فى صحة العقيدة وصدق النيـة . ونجتزىء على سبيل المثال بقوله : « فى طريق الخمارة الليلة البارحة ، حملوا على أكتافهم امام المدينة مخمورا . وأما الامام فكان يحمل على كتفه سجادة الصلاة ! » .

والواقع ان هؤلاء المخرقين كان لهم فى الدولة شأن خطير ،

حتى أنه كان من دواعى النبوة بين الشاه شجاع وبين حافظ استخفاف الاخير بفقيه كرمان ، وكان هذا قد علم قطة كانت له أن تأتم به وتحاكيه قياما وركوعا عند الصلاة . فرأى الامير فى ذلك كرامة من كرامات الاولياء ، ورآها الشاعر مخرقة من خدع الدجاجلة . وجعل الشاه الناقم – وهو فى نفس الوقت شاعر منافس – يقدح فى شعر حافظ لاختلاف بواعثه فهو آونة تصوف وأخرى تعشق وسكر ، وهو طورا وعظ وروحانية ، وتارة ذلاقة واهتمام بحطام الدنيا . فقال حافظ لمن حوله : « فليكن ما يقال حقا ، الا أن الخلق أجمعين على الرغم من ذلك جميعه ليحفظون أشعارى ويلهجون بها ويكثرون من ترديدها ، أما البعض ممن لا أستطيع ذكر اسمه ، فأشعاره لا تجتاز أبواب المدينة » . فكان من شأن هذا التعريض أن أحفظ الشاه فوق حفيظته ، فانتهز للشاعر بيتا من الشعر يوقعه فى قبضة يده ، فكان هذا البيت قوله :

« اذا كان الاسلام ما يعتنقه حافظ ، فواضيعتاه للشاعر لو صح أن بعد اليوم يوما آخر »

ونبه بعضهم حافظا الى النية المبيتة على تكفيره استنادا على هذا البيت . فبادر مضطربا جزعا يستفتى، فأشير عليه بأن يضيف بيتا آخر يفهم منه أن الكلام المتقدم جرى على لسان آخر فتنتفى التهمة وينجو الشاعر ، على مبدأ « ناقل الكفر ليس بكافر » . وبالفعل أردف حافظ بالبيت السابق البيت اللاحق

« فياله قول هزل سمعته سحرا ، من كافر يترنم على الدف والناى على باب الحانة » . وأبرز حافظ هذا البيت مع البيت الاول حين جابهوه بالتكفير ،

فسقطت عنه التهمة ، وسلم من التنكيل . ولكن شبح التكفير لم يزل فى اعقابه حتى وافته المنية . فلم يسمحوا بأن تقام صلاة الجنازة على رفاته ، بحجة ان له اشعارا يرى مشايخ المسلمين تفسيقها ومخالفتها للدين. وانبرى انصاره بطبيعة الحال ينضحون عنه ويدفعون . واخيرا استقر الرأى على الاستخارة من اشعاره . فاتفق لهم قوله : « لا تقعد عن تشييع نعش حافظ ، فانه على امعانه فى الغواية صائر الى الجنة فى النهاية »

وعندئذ اقيمت الصلاة ، ودفن الشاعر على مقربة من شيراز فى ظل شجرة سرو من غرس الشاعر نفسه . وحول الضريح بستان يزدهى بالرياحين ، ويشقه طريق يقوم على حفافيه السرو القديم

***

وكان اول من اتصل بهم حافظ من الولاة هو ـ كما قدمنا ـ الشاه « جمال الدين أبو اسحق » والى اقليم فارس . وكان شاعرا وصديقا للشعراء ، ومستهترا مستهلكا فى حب اللذات . وكانت أيامه زواهر ، ولكن خاتم ملكه الفيروزى ـ على حد قول حافظ ـ قد سطع فى أبهى سناء ولم يطل مداه . ذلك أن خاتم الملك الفيروزى ما لبث أن انتزعه لنفسه « مبارز الدين محمد » من آل المظفر . وفى اواخـر أيام حافظ طغى تيمور لنك ـ فيما طغى عليه من البلدان ـ على البلاد الفارسية ، كالاعصار الهائل يجتاح كل ما يصادفه ، فخرب الامصار ، واستباح المدن وعاث فيها وأفسد ، وأوسع أهلها سبيا وتقتيلا ، واقام من جماجمهم الاهرام والمنائر ولم يرع للخصوم عهدا ، فمن لم يضـع فيهم السيف أمر بهم فألقوهم من حالق . وقد دخل شيراز بعدها فى أوائل



الفاتح المغولى تيمورلنك

ذى الحجة ٧٨٩ هـ - أى بعــد وفاة الشاه شجاع - دخول الظافر القاهر . ويروى الرواة مقابلة جرت بينه وبين حافظ من المرجح انها أسطورة موضوعة ، ويزعم رواتها أن تيمور أرسل فى طلب حافظ فلما مثــل بين يديه عرض له بالنكير لقوله فى بيت من أشعاره :

« ذات دل من جوارى الترك ممشوقة القد ، لو اتخذت قلبى عبدا لها لكنت نعم العبــــد ، ولبذلت - فداء الخال على خدها - بخارى وسمرقند »

لهذا صاح به تيمور ناقما : « لقد دوخت معظم العالم المعمور بالطعنات النافذة من سيفى الصقيل المطرور ، وتركت الالوف من المدائن والاقطار قاعا صفصفا لأزين بأسلابها وغنائمها ســمرقند وبخارى ، بلادى وازهى حواضر ملكى ، فتأتى أنت الصعلوك النكد ، لتبذلهما من أجل خال على خد جارية تركية من جوارى شيراز ؟» فانحنى حافظ حتى مس الارض وأجاب :

« لقد بهرنى ما لملك العظيم من الأبهة والسرف ، فوقعت فيما وقعت فيه من خرف »

فسر تيمور من سرعة خاطره وحضور بديهته ، فلم ينزل بالشاعر نقمته ، ووصله بجائزة سنية

***

وحسبنا هذه الصورة المجملة لشاعر الشرق نعرضها ليتبين المطالع المتأمل أنها تصح فى جملتها صورة لشاعر الغرب

فقد التحق جوته الشاب ببلاط « ويمار » وهى امارة صغيرة الرقعة ولكن لها فى تاريخ المانيا أكبر الاثر . وقد كان أميرها « كارل أوجست » دون جوته سنا ، جم النشاط متيقظ الحس ، لا يكل من السعى والحركة ،

ولا يغفل عن انتهاز الفرص سواء فى اهتمامه بشئون الملك ، أو تفننه فى اللهو وانتهاب اللذة . وكان متحمسا للفنون والآداب يستقدم أصحابها ، ويوليهم المناصب ويجرى عليهم الرواتب ، ويشعر لهم بالاجلال والكرامة ، حتى اجتمع منهم فى ويمار ما لا تفخر بمثيله سائر المانيا . ومما يؤثر عن الامير الفتى انه أمر فجمعت له مكتبة عن الحب تكلف فى جمع شواردها العناء والنفقة. وهو يقرن الى ذكاء الفؤاد وشوق المعرفة عرام العواطف الحسية الجامحة ، وكراهة المراسم ، والخشونة فى الطباع والكلام وجفاء المجون ، والرغبة فى اللهو العنيف . وبالجملة كانت له شيمة الجندى تستهوى لبه المخاطر والخمر والنساء . ولقد اتفقت سليقة الامير وصديقه الشاعر فى عبادتهما للطبيعة وتذوقهما للحياة والارض . فاذا ويمار تضج فى معظم الاحيان بالاعياد ، ومواكب المساخر ، وحلقات الرقص فى ضوء المشاعل فوق الثلوج ، والصيد والطرد والاجلاب الجموح على صهوات الجياد ، وركوب المزالج على الجليد. وثمة مجالس الشراب ولعب الورق والنرد ، وثمة الجولات المتنكرة والصبوات المتنقلة ومغامرات الليل فى القصور والقرى المجاورة . والامير والشاعر متلازمان كلاهما عارم الفتوة صلب العود موثق البنية ، يروعك مرآه فى بذلة الركوب وحذائه الطويل الغليظ وقبعة السمور وهو يربت على كلاب الصيد أو يمسح على لبان الفرس . فلا جرم يصدق عليهما ماكان يقال من انهما يطويان بياض النهار فى الطرد والقنص ، ثم يعقبان بسواد الليل يزجيانه سكرا ورقصا ولهوا

ولقد يجر الامير المندفع صديقه الى حد الاستهتار وخلع العذار ، فى مغامرات شائنة مع الاماء والقرويات ، ويجوب معه معربدا فى الاسواق والاعياد العامة ، ويميل

به الى احدى الحانات المنقطعة ينادمان لعوبا من النساء مؤاتية . وكانت ويمار لها مسرحها ، وللمسرح فرقته . وفى الفرقة ولا شك حسان مؤاتيات ، ويقال انه كانت للشاعر والامير مغامرات مع بعضهن

على ان هذا كله كان يرضى من شاعرنا شياطين حسه ، ولم يكن ينفذ فى قلبه الى شغاف ولا صميم . فالشاعر لا غنى له عن الحب ، وهو لا يحيا حفل حياته الا به . ولقد ذاق جوته هذا الحب طوال أيامه مرة بعد الاخرى، ولولاه ما ارتفع على انانيته ، ولا سبر غور الالم وعرف التضحية ، ولا تخرج فى الشعر والادب حكيما ومنشدا . والنســاء اللاتى احبهن فى مراحــل عمره يطول بنــا احصاؤهن ، فيكفينا هنا للدلالة على مبلغ دينه لهن ، ومدى استلهامه منهن ، الاستشهاد بقوله : « الانوثة الابدية تجذبنا الى السماء »

ولقد قضى جوته حياته يطلب المعرفة بحماسة لا تفتر، ونهم لا يشبع ، ولم يقتصر هذا الطلب على ضرب من المعرفة دون الآخر ، بل كانت همته تستجيب لدواعيها بلا استثناء ، ويهفو شوقه الى أسرارها على السواء ، ويتفتح لها قلبه ويحتضنها جميعا فى محبة واحدة . فلم يكتف بالتخرج على عرائس الشعر والفن ، بل خاض فى العلوم وتوغل فى بحوثها كالتشريح والنبات ونظرية النور والالوان وطبقات الارض ، وغيرها من الدراسات العلمية للطبيعة يستبطن دخائلها ويستجلى غوامضها . وقد اهتدى فى بعضها الى حقائق قيمة هادية

وفى أيام جوته شبت الثورة الفرنسية . وهى — برغم فظائعها — انتصار مبين للشعب ولحقوق الانســان . فهلل للعهد الجديد شعراء من ســائر الاجناس والملل بحرارة وايمان ، ومن بينهم شيلر، وكلوبستوك وغيرهما

من الجرمان . واما شاعرنا فتنكر لهذا الافق الملبد بالفيوم المدلهمة والرهج المثار ، والدم المراق . ولقد هب ملوك أوروبا ضد الجمهورية ومبادئها . وفى مقدمتهم صمدت لها شاكية السلاح « بروسيا » ، وحليفها أمير ويمار رفى ركابه جوته . ولكن الشاعر كان يتبع شخص الامير ، من غير كبير اهتمام بالقضية ، لأنه بطبعه لاتحركه احداث السياسة وتقلباتها . فهو صاحب نفس مفكرة تبحث فى نواميس الطبيعة الخالدة ، وتجد فيها ما تجده النفوس الاخرى فى طوارىء الساعة من غذاء للحياة وحافز للهمة . فبينما كانت المدفعية الالمانية تصب نارها على قلعة فردون ، كان الشاعر فى شغل شاغل عنها . وذلك ان بعض الجنود الذين كانوا يصطادون السمك فى أحد الغدران لفتوا نظره الى حطام اناء من الخزف فى قاع الماء يشع موضع الكسر فيه عن أعجب اشعاعات الطيف واجمل الوان « الموشور » ، وقد بلغ من وقع هذه الظاهرة فى نفسه أنها ردته فى الحال الى دراسة البصريات ، وصرفته عن ضرب القنابل ، حتى لتراه فى الليل - المحمر الحواشى المهتك الجلباب من مقذوفات النار - يتمشى فى هدوء وراء أسوار الحديقة مع أحد العلماء يحدثه عن نظرية الانعكاس . ولم يزل هم الشاعر فى حله وترحاله فى ميادين الوغى منصرفا الى املاء المذكرات فى البصريات على كاتبه ، وظل الى ما بعدها حريصا على هذه المذكرات يزهو بما علق بها من آثار المطر والوحل كشاهد صدق على غيرته فى البحث ونبالة القصد

وبعد سقوط فردون دارت المعركة عند فالمى . وطاف القائد الفرنسى بالصفوف الاولى رافعا على شباة سيفه قبعته وعليها الشارة المثلثة الالوان ، وهتف « لتحيا

الأمة » . فارتفع هتاف هؤلاء المجنـدين قاصفا يصم الآذان . وثارت نخوتهم ودفعوا العدو بأسنة بنـادقهم المشرعة ، وانهزم فرسان ملك بروسيا الكماة المجربون أمام من يسمونهم « اسكافية » الجمهورية . ولقد دام قصف المدافع حتى الليل . وكلما مال ميزان النهار تضاعف اطلاق النار . حتى زلزلت الارض زلزالها ، وذهلت العقول عن التفكير فى المصير . وفى هذه الساعة العصيبة خطر للشاعر أن يمتحن رباطة جأشه وامتلاكه لأعصابه . فقد سمع انه فى مثل هذا الوطيس يجن جنون المرء وتأخذه « حمى المدفع » فأراد أن يعجم قوة نفسه ، ويبلو جلده كشأنه وهو فى ستراسبورج اذ كان يصعد فى كنيستها الى الذؤابة من برج الاجراس يصابر الدوار ويغالبه. وهذا هو اليوم ، يدفع بجواده الى المنطقة التى تصطلى نيران المدافع ، حيث تنهال المرامى هنا وهناك بين الخرائب فتتشظى الحجارة ، وتتناثر الاعواد والاعشاب ، وهو مسترسل يراعى فى سكينة هـذا الحاصب من القذائف المتطايرة يطوقه ويغوص حوله فى الارض الفريقة المتحللة ، وقد اشتمله حر كحر التنور . ولكنه آنس من نفسه ـ فى عزة المطمئن ـ ان نبضه على حالته من الهدوء

وما برح العنف يستدعى العنف . وجوته يزداد كل يوم كراهة للثورة الفرنسية فى عنفها ، دون أشخاصها. فان الرجل فى كتابه عن معارك فرنسا قلما يبخس أبناء الثورة نصيبهم الأوفى من التفانى فى البسالة ومن حماسة الايمان ، فيما عرض لوصفه من الهزائم والانتصارات على السواء . ولكنه كان يقول بالتطور تفاديا من قلاقل الفتن والثورات الدامية . وكان ذلك طبعا فيه حتى ليقول فى نهاية هذه الفترة :

« ان افتقادى لاستقرار الحيـــاة ، وتقلب اهواء السياسة بالناس ، حببا الى عقر دارى. وبودى هنا لو خططت حولى دائرة لا يتطرق اليها طارق غير الصداقة والفن والعلم »

وهنىء الشاعر ردحا طويلا من الزمن ـ بعد استقرار الثورة ـ بالراحة المشتهاة بين أشعاره وبحوثه ومقتنياته ، وبين منظومة زاهرة من أصدقائه ، وفى مقدمتهم الشاعر شيلر وقد أحس الى جانبه بتجديد حياته

***

ثم عاد جو أوروبا الى الاكفهرار فى عهد ابن الثورة القائد نابليون الذى نصب نفســه امبراطورا على الامة الفرنسية ، وقادها بعبقريته الحربية الى الانتصـارات الخارجية . وأعلنت بروسيـا الحرب على نابليون ، وامتطى امير ويمار الركاب مع بروسيا حليفته . ولكن سرعان ما اندحرت الجيوش الالمانية أمام نابليون وقد اثخن فيها ومزقها شر ممزق ، وانثالت الفلول المكسورة الى مدينة ويمار . فما عتمت أن دوت المدافع بقربها ، وتطاير الرصاص يصفر فوق دار جوته ، وهو يستمع الى أصوات الهاربين من وجه العدو ، ويلمح أطراف اسنتهم فوق أسوار الحديقة . زحام فاجع تتدافع فيه المناكب ، وتتعثر الاقدام ، ويختلط فيه الحابل والنابل والناس والخيل ، وتتسابق المركبات متصادمة عند المنافذ ومفارق الطرق . وأينما آدار شاعرنا الطرف فثمة قوائم مدفع مهجورة وعجلات مهشـــمة وجرحى هائمون . والعباب الآدمى الوافد يطم ويربو كل لحظـــة ميمما فى هربه الى غربى ويمار .

وبعد هنيهة بدت طلائع الفرسان الفرنسيين شاهرين

سيوفهم ، وسبائب خوذاتهم مرسلة للريح ، وهم وقوف فى ركابهم ناصبو الصدور على صهوات جيادهم الراكضة منتفخة الخياشيم مزبدة اللغام ، وكأنهم وهم يركضونها فى حللهم العسكرية الحمراء شياطين انطلقت على الدنيا.

وكان من امر شاعرنا المستشـــار أن امر للفرســـان الفرنسيين المتعبين بالجعة والنبيذ، وعهد بذلك الى نجله وكاتبه الخاص . وقد التمس جـــوته التشرف بنزول المارشـــال « ناى » فى ضيافته وقامت قعيـــدة داره « كرستيان **christiane Vulpius** ولم يكن عقد زواجه عليها بعد ـ تخدمهما على المائدة . بيد أن كرستيان كانت اكثر استئناسا بالضباط وان تعرضت أحيانا لسوء مجونهم . **وقد رأى « جوته » فى هـــذه الآونة اجراء العقد عليهـــا واشهار الزواج بها**

***

وبعد شهور جرت المقابلة المشهورة بين الامبراطور والشاعر . ومقابلة الامبراطور تجرى عادة فى الصباح اثناء طعام الفطور . وكان النزل فى حركة مستمرة ، والأروقة والدهاليز غاصةبالقواد وأركان الحرب، والحلل المقصبة تتعاقب على العين فى جيئة وذهوب ، وسيوف الاحتفال مجرجرة تصلصل على الدرج . وأقبل جوته فى حلة الديوان منسق الهندام مرجل الشـــعر . فطلب اليه الانتظار حاجب بدين ، وفى رواق الانتظار تعرف الى بعض القادة الكبار . وانفتح الباب ، ودعى الجمع كله ، ودعى جوته للدخول . فولج الى القاعة الفسيحة ، وفى بهرتها منضدة ضخمة مستديرة يجلس اليها رجل ربعة ممتلىء ، له جبين مقبب انحسر عنه الشعر، يتناول افطاره فى صحاف الفضة ، ويبدو فى الاربعين من عمره . هذا هو الامبراطور . وكان واقفا على يمينه « تاليران »

وادنى منه على يساره « دارو » والحديث دائر فى شئون المال وخراج الحرب . ووقع نظر نابليون على الشاعر فأومأ اليه بالدنو . فاقترب الى مسافة لائقة ، فحدد اليه الامبراطور الطرف مليا يتوسم ، ثم قال :

ـ انك لرجل حقا

فانحنى الشاعر ، واستأنف الامبراطور :

ـ وكم سنك ؟

ـ ستون يا مولاى

ـ انك لمدخر العافية

ومضى يقول انه يعرف له المكانة الاولى بين شعراء المأساة الالمان . ثم عرج على رواية « فرتر » فذكر انه طالعها سبع مرات واصطحبها معه الى مصر فى حملته الغابرة ، وأنه يعرفها حق المعرفة ، وأبدى عليها بعض الملاحظات . وامتد الحديث بينهما واستفاض ، وكان نابليون طوال هذه الاثناء ظاهر الصفاء والايناس يبدى استحسانه بايماءة يشفعها فى لهجة قاطعة بقوله : « هذا حسن » ، وهو ناشط الحركة ناطق الاسارير . وكان الامبراطور يردد أحيانا لنفسه بصوت مسموع أجوبة الشاعر الالمانى ليتفهم معناها جيدا من خلال كلامه بالفرنسية المقلقلة ، كما كان احيانا اذا أدلى برأيه فى نقطة بعد المذاكرة يقبل فى بشاشة على الشاعر متسائلا : « ما ظن المسيو جوته فى هذا ؟ »

وحين انتهت المقابلة انحنى الشاعر مستأذنا . فلما انصرف ، التفت الامبراطور الى من حوله راضيا وقال : « هاكم رجلا »

***

واطردت الاحوال فى السياسة الاوروبية على هذا

المنوال . الى ان غضب نابليون على قيصر روسيا وتوغل في بلاده ليعاقبه على حد قوله . ومضى متنقلا من نصر الى نصر حتى موسكو ، فاحرقها الروس . وحل الشتاء داهما مبكرا فارتد نابليون امام روسيا المتلفعة بالثلج والجليد . وفتك الزمهرير بالجند الامبراطورى فتكه الذريع ، فكانت الجثث تتساقط كأنها معالم طريق في كل مرحلة من مراحل القهقرى . واذا الجيش العرمرم الذى كان يسد الافق ، لايزيد حين معاده على قبضة من الرجال . وتألبت على النسر المهيض الملوك والشعوب التى سادها ، وانقلبوا عليه بعد اذ كانوا فى ركابه . فاذا اوروبا التى كانت معه ، تقوم اليوم مع روسيا فى وجهه

وحانت الفرصة لخلاص ويمار من الحكم الفرنسي . ولكن الشاعر يشفق من ذلك . فهو معجب بنابليون وهذا به معجب . كما انه يأنس انحدار نجمه فى نظر الالمان، وانقطاع أسباب التعاطف معهم بعد مؤلفات صباه، بمقدار ما كانت تسطع شهرته وتتألف القلوب حول أدبه خارج المانيا : فى فرنسا وانجلترا وايطاليا .

وفوق ذلك كان جوته لايطمئن الى الانتقاض على نابليون « بطل الاقدار » كما يصفه ، حتى انه قال يوما لدعاة الاستقلال : « انما تقعقعون بسلاسلكم ، فالرجل كبير عليكم ، وقصارى أمركم أن تزيد السلاسل حزا فى لحومكم »

***

وكان من ناحية أخرى يسوؤه أن يرى امارة « ويمار » تجلو عنها سيادة باريس لتخلفها سيادة برلين . فهو يمقت البروسيين أشد المقت لانطباعهم بطابع الثكنة والروح العسكرية وغلوائهم فى الدعاوى الحربية

وهذه هى بروسيا فى طليعة [illegible] تنقض [illegible] الى الكراديس من القوازق الروس . ثم تأتى لنجدتهم كتائب النمسا اذ ينحاز امبراطورها الى أعداء صهره . ويمهر بتوقيعه عهد التحالف معهم . لقد اتسعت رقعة الوغى ، ونشبت معركة الأمم ، فهى جميعا الب واحد على نابليون

وتبدلت الحـال فى ويمار المدينـة الزاهرة بالآداب والفنون ، فهى تعانى الاحتلال البروسى بما فيه من شدة وتزمت ، وما يستتبعه من تضييق وتسخير وايواء للجند الجفاة الفلاظ ، حتى ليقرع أذن المستشار الشاعر على درج قصره وفى دهاليزه رنين نعالهم الضخمة الموحلة ، فضـلا عن تقاطر الجرحى والمرضى وتفشى الأوبئـة والحميات

***

أيام كئيبة حقا يطيش لها عقل الحليم الا جوته ، انه يعتصم دائما من أمثال ذلك الحال بالهرب من الحاضر : « لم يبلغ بى الهرم أن أشغل بالى ، وأقلق خاطرى بتاريخ العالم فهو أسخف شىء . فليهلك هذا أو ذاك ، ولتندثر هذه الأمة أو تلك ، فكله سواء »

وزاد اعتزال الشاعر لما حوله ، وأبعد بفكره أميالا بعد اميال ، وارتفع أطباقا فوق أطباق ، وتخلص من قيود الزمان والمكان . لقد انفتحت للشاعر من خلال ديوان حافظ الشيرازى أبواب الشرق مهد الانسانية ، بما فى ذلك الشرق من أوضاع للشعر والاجتماع والاخـلاق والدين تختلف عن الاوضاع فى الغرب فى عهده .

وعلى هذا النحو خلص جوته من أحداث العصر الى صميم الحياة ، الى الوحدة والبساطة . فكل شىء فى كنهه

بسيط وغاية فى البساطة ، والاشياء كلها سواء ودائما سواء . وما التعدد والتعقد الا أطوار واحوال

وكانت أشعار حافظ تكشف لجوته عن حياة تمت الى حياته بأقرب وشائج القربى ، حياة عاشها هو ايضا . حياة نفس تطالع الوجود فى ذاته بمنتهى الحرية واللذة ، ولا تقطع ما بينها وبين الارض، وتواجه الجمود والتعصب بالتصوف الحى والاحساس بالشمول .

لكأنما هى حياة « جوته » هذه التى يحكيها حافظ . الممالك تنهـار ويقوم الغاصبون فى اثر الغاصبين . فلا تسمع من الشاعرين غير الغناء بنجوى نفسهما وأشجانها الحلوة وأسرارها الخالدة . وكلاهما يقف وجها لوجه امام قاهر طاغية : هـــذا أمام تيمورلنك ، وهذا أمام نابليون ، فلا تنخذل عبقرية الادب فى وجه عبقرية الحرب

ان « جوته » لمأخوذ بهذه المشابهة يهتز لها من فرعه الى قدمه ، فهو يعلم ما لهذه اللحظة من خطر . ان فى هذه اللحظة يتصل العالمان ، الغرب والشرق ، باتصال نفسين كبيرتين من الجانبين . وهذا هو جوته يحس فى لقائه حافظ بالشرق والغرب يلتقيان فى نفسه، وتضمهما دفتا كتاب واحد يخرجه للناس : « الديوان الشرقى للمؤلف الغربى »

الهجرة العظمى

من جحيم الغرب إلى جنة الشرق

كانت اوروبا فى تلك الحقبة المضطربة ، على الحال التى وصفنا من الاضطراب ، تتزلزل تحت اقدام الجيوش من سائر الاجناس ، ويصطبغ اديمها بدماء الالوف من القتلى والجرحى ، ويمزق فضـــاءها قصف المدافع ، ويطبق على آفاقها مثل نار الجحيم ودخانها

من هذا الجحيم المضطرم فى الغرب، أزمع جوته الهجرة

لقد ترك « ويمار » الى الجنوب المشمس المشرق ، فى « بوهيميا » تارة ، وفى منطقة حوض الرين الجنوبى تارة اخرى ، حيث عكف على قراءة كتب الرحلات الى الشرق ومطالعة الشعر الشرقى وخاصـــة شعر حافظ الشيرازى

وكلما عمت الغاشية أوروبا واكفهرت اقطار سمائها وادلهمت سائر آفاقها بالسحب تقصف رواعدها وتتهاوى صواعقها، زاد اقبال الشاعر الحكيم ــ بكل جوارحه وقوى

نفسه وخياله ـ على الشرق حتى أظله وأشتمله . وأحاط به واحتواه ، وصار له موطنا وبيئة .

انه اليوم يحس من نفسه كأنه ابن الشرق من فرعه الى اخمص قدمه ، رافلا فى الجبة الفضفاضة ، متوجا بالعمامة الفخمة ، متمشيا تلك المشية الشرقية الحالمة فى فضاء ساحر مشرق ، بين النخيل ممشوقة الشطاط. على ضفتى دجلة والفرات ، ينطق بالحكمة وينشد الاشعار ، بل هو بعبارة أصح كأنه شيخه الفارسى حافظ الشيرازى بذاته وسمته وفى مقامه الاثير من جنات المصلى ونهر ركناباد ، غافل الا عن نفسه ، مستغرق فى احساسه وحسه ، نشوان يترنم بمنظوم الغزل

***

وهكذا طابت لشاعر الغرب هجرته الروحية العظمى الى الشرق . وها هو ذا يتغنى بنشيد « الهجرة »

« الشمال والغرب والجنوب ، أقطارها تتناثر بددا ، وعروشها وممالكها تنهار . فهاجر وامض الى الشرق الطهور تستروح الطيب من الآباء الأوائل الطيبين ، وبالحب والنشوة والغناء يرد عليك « الخضر عليه السلام » القائم على عين الحياة ريعان صباك

« هناك فى ظل النقاء والصدق تطيب لى الرجعى الى نشأة الانسانية الاولى ، الى الأزمان التى تلقى فيها بنو الانسان كلمة الحق منزلة من الله بلسان أهل الارض ، فلم يقدحوا فكرا ولم يكدوا ذهنا ـ الى تلك الأزمان التى كانوا فيها يبجلون السلف ، وينهون عن كل دين غير دينهم

« أريد التملى من عصور الفطرة بأفقها الممدود المحدود ،

ايمان واسع وفكر قانع لهما من الشأن ما للكلمة فانها كلمة منزلة

« اريد معاشرة الرعاة فى المنتجعات . والاستروح فى ظلال الواحات ، والارتحال مع القوافل متجرا فى الشيلان والبن والمسك ، طارقا كل درب من البوادى الى الحضر

« وسيان انجدت او اتهمت . فان اغانيك يا حافظ تؤنسنى فى وعثاء السفر ، اذ يترنم المرشد بها على ظهر برذونه مأخوذا طربا وكأنما يوقظ بها النجوم الوسنى ويرهب قطاع الطريق

« وهناك فى الشرق فى ردهات حماماته وبين جدران حاناته ، اريد ان اذكرك يا مولاى حافظ وقد رفعت حبيبتى خمارها ، وتضوع الطيب من غدائرها المهدلة المضمخة بالعنبر

« وليعلم الذين ينفسون على الشاعر هذه النعمة والذين تطوع لهم نفوسهم تنغيصها ، ان كلمات الشاعر لا تبرح حائمة حول جنة الخلد طارقة فى لطف أبوابها تطلب الخلود »

***

وهكذا انصرف خيال « جوته » بكليته الى دنيا الشرق الساحر كما تمثله فى مطالعاته ، وبخاصة فى شعر حافظ فهو منه فى جو تشيع فيه اللذة وتشب الوان الحياة . انه جو تلطف حواشى نهاره بأنداء النوافير الفوارة ، وتتردد فى لياليه المقمرة أصداء المعازف وتلاحين القيان ، وفى مقاصير قصوره تتخايل الجوارى فى برود الخز الفاخرة ومطارف الوشى الخسروانى ، ويخطف الابصار سنا الجواهر وبريق الحلى ، وتفغم الحواس مجامر البخور وسطعات المسك وعبير الورد

ولقد ملك هذا السحر على الشاعر لبه ، وحق له ان يملكه. ولكن المغلوب على امره لا قدرة له ولا خير يرجى منه . وما من سبيل للشاعر الى الغلبة الا ان يملك هو السحر بدوره ، ويقوى عليه فيقيده بالعبارة ويخضعه للفظ

وها هو ذا شاعرنا يعالج الغلبة ، وقد واتته بعض منظومات فى شتى الاغراض مما استوحى وحيه من الادب الفارسى ، ولكنه كدابه لاينشط للانتاج الادبى نشاطه العجيب الا ان يساعفه الحب ويخف الى نجدته . فانه على كل طاقتــه وبأسه ، لايستطيع شيئا بغير هــذا السند . فليس هو بصاحب السلطان على ملكاته ، فقد ترين عليه فترات من الخمود يطول امدها احيانا حتى لتحسب ان الفنان فيها نضب معينه وصوح ربيعه . ثم على حين غرة تدر افاويقه وتزدهر افانينه تحت تأثير حب جديد شديد . ولذلك تتوافى أبدا فورات عبقريته على موعد من مواقف غرامه وعهود محبته .

واليوم هو فى الشرق حيث يتغنى الشباب والشيوخ بأحاديث العشق وتتردد على ألسنتهم أسماء ازواج من العشاق أصـــبحوا على صــدق الهوى اعلاما مرفوعة وامثالا مضروبة ، تســير بذكرهم الركبان وتستفيض اخبــارهم فى كل افق وفى كل زمان : المجنون وليلى ـ جميل وبثينة ـ خسرو وشيرين ـ سليمان وملكة سبأ فاتنته السمراء ـ يوسف وزليخا

فمن له هو الآخر بشطره المكمل والفه ؟.. اين تكون زليخاه ؟ ..

فى طلب النور والحب

فى شهر يوليو من عام ١٨١٤ ارتحل جوته من «ويمار» شاخصا الى الجنوب فى طلب الشمس والدفء والنور، يجدد بها شبابه ويحلم فى أحضانها بالحب . وكانت وجهته « ويزبادن **Wiesbaden** » مدينة العيون الحارة الطبيعية .

وكان الشاعر فى أول الطريق حين طالعه فى صبيحة يوم هجرته « قوس قزح » شاحب غارق فى غمرات الضباب ، فشام فيه المهاجر بشارة الرجاء والسعادة المقبلة ؛ فنظم فى تحيته المقطوعة الآتية :

« حين اقترن اله الشمس بالسحابة الريانة ، تولد فى الحال قوس ملون بشتى الالوان . وانى الساعة ناظر مثل هذا القوس مرتسما فى الضباب ، وهو فى رأى العين ابيض فضى اللون ، ولكنه مع هذا قوس الغمام يتمثل فيه قوس الغرام وسهامه

كذلك انت أيها الاشيب ، الصحيح البنية الشديد

العنفوان . لا عليك أن شاب مفرقك ، فان العشق لا يزال من قسمتك »

***

وكان قدمضت عليه سنوات عدة لم يعاود فيها هذه الاكناف من «فرانكفورت على المين» مسقط رأسه ومدرج صباه ، فطالعته ـ بعد مروج ويمار الهزيلة ـ ضفاف نهرى « الرين » و « المين » شائقة رائعة تنعكس على عبابهما عرائش الكرم ومناظر القرى وأبراج الاجراس :

« ما هذا الذى يتراءى هنالك مبرقشا منمنما وكأنما يصل الربى بالسماء ؟.. ان هبوة البكور ترين على الافق وتغشى على نظرى . أتراها خيام الوزير اقامها لجواريه الحبيبات ؟ .. أم هى الطنافس الخسروانية الممدودة احتفالا بمهرجان عرسه ؟..

« ليس فى العيان أجمل منها يا حافظ ، أترى بلدتك شيراز أقبلت بكل ما وصفت من ورودها الى سهول بلادنا القاتمة المدجنة ؟..

« بل هى أزاهيرنا تتبدى جميعا كأنما تتحدى اله الحرب

« لا برح العقلاء يغرسون الرياحين لخير الخلق ، ولا برحت الرياحين فى شعاع الشمس متألقة تألقها اليوم فى طريقى »

وكانت الكنائس فى طريقه مدوية بأصداء الرنين متجاوبة بصلوات الحمد احتفالا بأعياد تحرير المانيا ، وقد حفلت المحاريب بجموع الأهلين المتوافدين من كل صوب فى أثواب الاعياد القشيبة

***

وفى جو الجنوب حيث الرياح الدفئة السافية محملة

بالتراب ، ذكر «جوته» شيخه حافظ وحن الى الحب الأرضى :

« التراب عنصر من العناصر انت بارع التصرف فيه يا حافظ كلما نظمت النسيب فى معشوقتك .

فالتراب على أعتاب دارها أحب اليك من الطنافس المنقوشة بوشى الذهب يتربع عليها ندمان الشاه ابى اسحق محمود .

« واذا الريح السافية حملت من لدى بابها حفنة من تراب فانها لأطيب عرفا عندك من المسك وعطر الورد .

« يا للتراب ! .. لقـــد طال حرمانى منه فى ربوع الشمال الملتحفة أبد الدهر بالضباب . أما هنا فى الجنوب الدفىء فانى ملاقيه موفورا . غير أن أبواب الحب لما تزل موصدة دونى ، قابعة فى مدارها لا صرير لها ..

« ألا أيتها الرياح السوافى .

« اغيثينى بفيثك ، دعينى أسوف رائحة الارض الندية

« ولا بأس بالرعود كلها ترعد ، وبالسماء تتجاوب اقطارها بالبرق .

« فان الفيث المنهمر لهابط بهذا الفبار المثار على وجه الارض طينة مخضلة ، وسرعان ما تنبعث الحياة ، ويشع روح من التخمر خفية السر مباركة الاثر

« فاذا كل شىء فى كل ناحية ينتعش ويترعرع ، واذا كل شىء يخضر وينضر »

***

واشتد بالشاعر هذا الشوق الى التجدد . لقد كان من قبل فى طوره اليونانى يرى الصورة المفرغة والكيان المجبول أبلغ ما فى الوجود . أما اليوم فانه يرى التحيز فى مكان بعينه معناه الجمود فلا بد للحى من الممات لتتجدد

له الحياة ، ولكى ينبعث أصفى جوهرا واغنى عنصرا . وما الحياة الا تطور من حال الى حال ، سواء فى ذلك حياة الحشرة فى الثرى او الاجرام فى أجواز الفضاء

ولقد قرأ فى ديوان حافظ أبياتا من غزله يتغنى فيها بشوق الفراشة الى اللهب وراحتها فى الاحتراق به . فخرج منها بمعنى غير شوق المتصوفة الى الفناء ، لأن صاحبنا حاضر الحس لايشبع من البقاء على ظهر هذه الغبراء . وهو القائل فى رسالة له الى صديق : « يقينى اننى كنت حيا مثلما ترانى اليوم ألف مرة قبل هذه المرة ، ولعلى عائد الى الحياة ألف مرة أخرى بعد هذه المرة » فشوقه انما هو الى التجدد الحافل المستمر . وهذا ما يجيش الساعة بنفسه ، أليس هو اليوم غيره بالامس ؟.. الم يمت جوته اليونانى طاويا حقبة حياة تنيف على خمس وعشرين سنة كانت وقفا على عبادة المثال الاغريقى . وهل يشوقه اليوم الا ان يحترق كالفراشة فى لهب عشق جديد ليتم له فى سمته الشرقى انبعاث جديد ؟.. انه ليشرح هذا « الحنين السعيد » فى مقطوعة من أروع الشعر :

« لا تتحدث بهذا لغير عاقل حكيم ، فان عامة الناس على السخر والاستهزاء مطبوعون !..

ما أسعد الحى يطلب المنية فى اللهب

« فى ليالى الحب الندية التى انت فيها تتلقى الحياة وتبذل الحياة

« تستحوذ عليك عاطفة غريبة ، اذ يسطع سنا السراج الساجى فلا تطيق بعدها البقاء فى الظلمة ويستدرجك شوق جديد الى قران اسمى وأعلى

« ولا يقعدك المدى ، بل تخف مبادرا مفتونا .

« فاذا انت ياعاشق النور، ياصنو الفراشة، ذائب محترق
« مت وتحول خلقا جديدا .
« فانك – ما جهلت هــذا – باق على ظهر الارض
المظلمة كالغريب .
« ذلك الضيف الحزين الكئيب » .

***

ولقد قدر لشاعرنا أن يستعيد شــبابه ويتحول الى
خلق جديد مرة اخرى ، حين لقى فى الرابع من اغسطس
عام ١٨١٤ هذا الضرام المنشود فى انتظاره

زليخا

كان بين اسرة جوته ، واسرة فيلمر ، من رجال المال فى فرانكفورت روابط صداقة قديمة. فما سمع « يوهان جاكوب فيلمر Johann Jakob von Villemer بأن جوته مقيم على مقربة منه فى مدينة المياه «ويزبادن» حتى اقبل الى زيارته فى الرابع من شهر اغسطس عام ١٨١٤ ومعه صاحبته « مريان يونج Marianne Jung » كأنها حورية من الحور العين هربت من الجنة

ومريان يونج هذه فتاة نمسوية بارعة الحسن كان ابوها صانع عيدان فى « لنز Linz » ، وقد أظهرت منذ نعومة اظفارها المعيشة متوقدة وملكة طيبة فى الغناء والموسيقى والرقص. ولقد كانت قبل سنوات وهى دون الرابعة عشرة تلعب على المسرح الى جانب أمها فى فرقة تمثيلية قدمت تعرض العابها فى فرانكفورت ، وكانت الفنانة الصبية تجمع الى رونق الحسن لطف الشمائل ،

فتوافر لها كل ما يؤذن بمستقبل فنى زاهر . وفى الواقع نجحت الصبية مريان فى روايات الفناء والرقص نجاحا مبينا . فهى تطلع تارة فى هيئة زهرة رائعة وتارة فى زى « ارلكان arlequin » ذلك المهرج الانيس الظريف فى ثوبه الملفق المختلف الالوان ، وآونة تخرج من بيضة هائلة الحجم ، واخرى تنطلق من فوهة مدفع من الورق المقوى . وهى فى هؤلاء جميعا فتنة للناظرين تسلب العقول وتخلب الالباب

وكان فى من استرعاهم جمالها وفتنة سحرها المستشار الخاص فيلمر وكان عضوا فى ادارة المسرح . والظاهر انه كان فى بادىء الأمر مطوى الجوانح لها على شبه عاطفة أبوية ، وانه أشفق على طفلة فى مثل نقائها وطهرها من بيئة التمثيل ، وارتأى مقامها منها فى غير موضعه ، فاستجاب لداعى الخير ووطن نفسه على انقاذ مريان والعمل على تركها خشبة المسرح . وكان فيلمر وقتئذ أرملا فى الاربعين من عمره ، فتقدم يعرض على الوالدة الفنانة ان تهجر صغيرتها المسرح وأن يتولى عنها أمرها فيأويها عنده ويتعهدها بالتربية مع كريمتيه ، فأجهشت مدام يونج بطبيعة الحال متمنعة معترضة . فهيهات لها الصبر على فراق ابنتها الحبيبة . فلما أن أقبل يحدثها عن قدر كبير من المال ينفحها به فضلا عن رزق يجريه عليها ، سلمت فى الفتاة وقلبها - على حد قولها - مفعم غما

ونزلت مريان فى قصر المتمول الكريم ، فحلت بين ابنتيه فى مقام ابنة له ثالثة . ولكن هذا « الانقاذ » كان مثار اللغط ، فخاضت فيه ألسنة السوء على سنتها ، ولاكته أفواه القارضين . وكان فيلمر فى حقيقة الأمر ينظر الى مريان نظرته الى ابنة له ، ولقد جعل همه الى

احسان أدبها وتثقيفهـــا . فاذا بها فى زمن وجيز ذات
براعة واقتدار فى الموسيقى والتصوير والشعر جميعا .
وليس ينفى هذا انه كان فى خفايا قلبه يهواها منذ البداية ،
حتى اذا نما حبه واستفحل لم يسعه الا أن يصارح به
نفسه ويعترف به بينه وبين ضميره . وأما التى يهواها ،
فانه لم يصارحها الحب الا بعد زواج كريمتيه . ولقـد
آنست مريان من نفسها حبا له ، فقام بينهما من ذلك
اليوم تعاطف جميل وميل متبادل ومعاشرة

فى هذه الآونة تلقى جوته فى مدينة المياه « ويزبادن »
تلك الزيارة التى تقدم بنا ذكرها ، من المستشار المتقاعد
فيلمر — وهو وقتئذ فى الخمسين — ومعه صاحبتـــه
النمسوية ، وبعد مراسم التقديم وتبـادل التحية وما
تسـمح به هذه الزورة القصيرة من حديث ، انصرف
الصديق ومعه صاحبته الشابة الفاتنة

ولكن سرعان ما ظهر جوته فى حياتها ، حين قدم بعد
شهر (فى ١٤ سبتمبر) يرد الزيارة لآل فيلمر فى البيت
الريفى بالضيعة المسماة « طاحون الدباغ **Gerbermuhle**
فى ضواحى فرانكفورت ، ولمـا لم يكن فى البيت غيرها
وابنـة فيلمر الكبرى الأرملة « روزين » ، فقـد كرر
الزيارة فى ١٨ سبتمبر

وحسبنا تعريفا لما احدثته زيارة جوته من الاثر ، أن
نورد وصف « روزين » للزائر الشاعر وهو وقتئذ فى
الخامسة والستين : «ياله من رجل! ان صدرى ليجيش
بالعواطف . فقد رأيت منذ هنيهة هذا الانسان ، وكنت
أتمثله طاغية متوعر الخلق لا يطاق ، فألفيته لطيف الشيم
رقيق الطبع متفتحا للمؤثرات جميعها ، يود المرء أن يحبه
محبة الطفولة وأن يسكن اليه بكليته . انها لاشك فطرة
فريدة يعز نظيرها لطافة حس ، وقدرة وسكينة معا .

فان اهون بارضة من العشب ، وأيسر نبرة من صوت ، وادنى لفظ ، وبالاجمال سائر ما فى الطبيعة جل أو قل . ليناجيه بالمعانى العميقة الشائقة . وليس من شيء إلا يصبح فى نفسه صورة وشعورا . وهو يحسن تأدية هذا كله تأدية حية كل الحياة . من ثمة كان كل سطر من سطوره يخاطب القلب توا من غير وناء . ولا غرو ، فما عمرت كتاباته بالمعانى الا لأنها تصدر عن قلب حافل عامر »

وكانت مريان حين تعرف عليها جوته تناهز الثلاثين. وهى قصيرة ربعة القوام ولكنها مفعمة صحة وحرارة ومرحا . ثم هى ذات وجه مدور وذوائب سود وعينين ضاحكتين اشبه ما تكون بزوجته كريستيان ، غير أنها انضر ريعانا وأذكى جنانا . وما لبث الشاعر بعد التعرف بها ان اشتعل قلبه بحبها جريا على ديدنه ومألوف عادته

ولقد نزل الشاعر تلبية لدعوة صديقه فيلمر أياما متواليات عندهما فى مغناهما الخلوى فى الضيعة المسماة « طاحون الدباغ » . وكانت الضيعة كما تشتهى الانفس، وريقة وارفة الافنان تنحدر رياضها المعشوشبة وثيرة حتى نهر « مين » ويحلو التلبث فى الظلال الندية من خمائلها اللفاء الممدودة . وكان الشاعر والغانية لا يملان الاجتماع يتجاذبان حلو الحديث ويترامقان بلحاظ الحب ويتطارحان الشعر . وانفرطت الايام طوع هواهما خفيفة الخطى سراعا . ثم اختتمتها ليلة ليس أورى منها للوجد ولا أشجى. اذ صعدا الى برج الدار يشهدان من ذراها أنوار المهرجان ونيران الافراح المشبوبة من كل مكان فوق المرتفعات والروابى احتفالا بذكرى انتصار الالمان فى «ليبزج» . وكانت الليلة زاهرة النجوم مهتوكة الحجب ، فكأنما اضطرمت السماء والارض معا وامتزجا

في شعاع واحد . فكيف يعتصم الشاعر والغانية من وقده هذا اللاعج ، ويوصدان القلب دون هذا الشعاع .

وفي الغداة ارتحل الشاعر قافلا الى ويمار ، وخيال مريان لا يفارقه . فهي ماثلة له بقريحتها المتفننة اللعوب ومزاجها المرح الطروب، وعينيها النجلاوين وسود ذوائبها الجثلة ، وصوتها الممتلىء العامر بالحياة ، ومعزفها الناطق ، وفهمها فهم العابد المتخشع لشعر العجيب جوته وموسيقى بتهوفن . فلم يزل في نشوة من هواها يمسي ويصبح لا تغيب عنه ذكراها

وكان الشاعر قد ترك عندها كتابا تذكاريا فبعثت به اليه مشفوعا بهذه الابيات : « فيك يعرف الناس أعظم من عرفوا ، وفيك يكرمون خير من كرموا . ولا يسع من رآك الا أن يحبك »

لم يطل جوته هذه المرة زيارته ، فارتحل الى مدينة « هيدلبرج **Heidelberg** » . وأكبر الظن ان فيلمر يصادق فراسته وطبيعة استرابته توجس من اثر هذه الزيارة ، فسارع في تعجل ملحوظ الى توثيق عشرته بصاحبته بعقد شرعي ، فلم تمض أيام ثمانية على رحيل جوته حتى كانت « مريان يونج » قد أصبحت « مدام فون فيلمر »

واصدر الشاعر في ختام هذه السنة الطبعة الاولى من « الديوان الشرقي » ويشتمل على خمسين قصيدة مرتبة بحسب تواريخ نظمها ومن بينها قصائد في الغزل ضمها فيما بعد الى « سفر العشق »

وفي صيف السنة التالية (١٨١٥) عاود جوته الرحلة الى «ويزبادن». وكان قد طالع من بين ذخائر « الخزانة الشرقية » التي يجمعها « برتليمي هربلو **Barthelemy**

d'Herbelot » مجموعة طيبة من اخبار عشاق الشرق ، فاختار من بين أسمائهم لعروس شـــعره الغزلى اسم « زليخا » ، ولكنه لم يتخذ لنفسه اسم يوسف معشوق زليخا ، بل تسمى فى أشعاره « حاتم »

وفى الثانى عشر من أغسطس كان الشاعر للمرة الثانية فى ضيعة « طاحون الدباغ » فى زيارة طويلة لآل فيلمر لكى يتملى بأسابيع راحة بعيدا عن همومه المنزلية بجوار زوجة طائشة ، وبعيدا عن أحاديث السياسة أثناء انعقاد مؤتمر فينا . فهو هنا منقطع عن شواغل الدنيا يستفتح الابواب على مصاريعها لأحلامه ويتوغل فى جو هذا الشرق العاطر حيث يلقى زليخا ويستلهم الوحى فى قربها

وكان الشاعر يلزم غرفته فى الصباح مختليا بنفسه يشتغل بتدوين الحواشى والتعقيبات على ديوانه الشرقى وتحرير بحوثه عن الفن والأزمان الخالية . ولا يتوقف لحظة عما هو فيه الا ليشرب جرعة من نبيذ الرين فى جام من الفضة . فاذا حان موعد الفداء ارتدى حلته محتفلا ، ولاقى فيلمر ومريان على المائدة . ثم انصرفوا بعدها الى النزهة فى الخلوات حيث لا كلفة ولا ضيق ، فهو الصديق الاليف ، والرفيق الانيس ، يحدثهما فى بساطة وطيبة ، يلفتهما تارة الى شكل السحب والى لون الظلال وكثافتها والى الاشجار القائمة فى الطريق ، وتارة يقطع بمديته فننا من الاسل أو ينبش عن حصاة متحدثا اليهما فى علم النبات او طبقات الارض . نزهات ما كان أطيبها الى جنب مريان بين المروج الزاهرة وفى جوف الخمائل المظللة .

بيد ان الليالى كانت اطيب وامتع . فقد كان جوته فيها أكثر طلاقة وترسلا ، اذ يتدثر بمبذلته من الصوف

الابيض ويستوى مرتاحا فى مقعد كبير بجانب المعزف « البيانو » ، وتغنى مريان فى تأثر وشجو أبدع الاغانى التى نظمهـا جوته « أتعرف تلك الارض » و « الاله والراقصة » و « نم . ماذا تشتهى بعد هذا ؟ » وغيرها.
ولقد أسمعتهم فى ذات ليلة قطعة لموزارت فهتف شاعرنا للعازفة مأخوذا طربا : « انها لدونجوان صغير » فصفق السامعون وهللوا . وظلت الحسناء بقية الليلة ورأسها منكب على كراسة الموسيقى لا ترفعه خفرا واستحياء
وكانا يختليان أحيانا عند الشرفة والقمر يسلسل مثل ذوب اللجين على حرير الستائر ويفضض عصابة مريان وطرحتها الكشميرية . وبينما يكون فيلمر فى ركن من الاريكةمهوما ناعسا ينشدها جوته رافعاعقيرته بمقطوعات الغزل بين « حاتم وزليخا »
يا للحب ! انه خارج عن الزمن . وان الماضى والحاضر ليمتزجان فى هذه البقعة ، ويضمان الشاعر أهنأ ضمة . فهذا نهر « مين » يترقرق تحت النوافذ ، وتبدو من بعيد أبراج فرانكفورت . وهنا فى جوار الطاحون مدرج الطريق التى كان من قبل يسلكها فى ذهابه للقاء احدى حبائب صباه . انهن ليتمثلن له جميعا فى مريان ، وانها لحب واحد مستمر متصل الحلقات ، حب ينطوى قديمه فى جديده
وكان اليوم الثامن والعشرون من أغسطس هو العيد السادس والستين لميلاد الشاعر. فاذا الجوسق محفوف بأغراس القصب تطاول ذوائبها النوافذ ، وتتمايل كأنها سعف النخيل . واذا الجدران مزدانة بالازهار منسقة على مقتضى نظرية الالوان .

وأقبلت مريان وروزين تقدمان بين يديه ملء السلال من الرياحين ومن فوقها عمامة من الطف صنوف الشف

الموصلى يعلوها اكليل من الفار . وفى هذا يقول جوته :
« هلمى تعالى ياحبيبتى . انت الموكلة بعمامتى . وما تجمل العمامة الا ان تصوغها بنانك . وما كان الشاه عباس على عرش ايران المعظم ليعتمر بعمرة ابدع من هذه

« وهل كانت الا عمامة . تلك العصابة التى كانت تتدلى سبائبها الانيقة على فودى الاسكندر، واتخذها الملوك من بعده شارة ملكية

« ثم أليس عمامة مايزين جبين مليكنا ؟

« هم يسمونه تاجا ، فلنعد من الاسم الى المسمى . انه در وعسجد فتنة للناظرين . والشف الموصلى لله دره هو أيضا افتن الشارات وأبهى الحلى

« هذى عمامتى ناصعة البياض فضفاضة الاطراف فتعالى ياحبيبتى ، وأعصبى بها جبهتى .

« فما العظمة ؟ انها عندى شىء مألوف .

« لرمقنى عيناك ، فاذا أنا الملك العظيم الشأن »

***

وما حل شهر سبتمبر حتى كان جوته جياش الصدر يفيض فيضا بالشعر ، يرسل المقطوعة فى اثر المقطوعة ، باسم « حاتم » متغزلا بصاحبته « زليخا » . وما كان أشد دهشة الشاعر وفرحته وهو يتلقى جوابها شعرا بشعر من طبقته وفى قوته وبلاغته

ولقد ودعها متعجلا ، ولكنه وداع من يفر من نفسه ، فرحل فى الثامن عشر الى هيدلبرج بدعوة من صديقه « بواسريه Boisseree » أحد هواة الفن لمشاهدة مجموعته من اللوحات والصور لأعلام المصورين

بيد ان آل فيلمر لحقوا به بعد أيام وقد نظمت مريان

[illegible]نشودته حين « مناجاة نسيم الصبا » :

« لقد طرق [illegible] هذا الربيع !

« هذا هو [illegible] الصبا الشرقي يزف لي البشائر ؟

« يرف [illegible] الحدائق ليروح على جرح قلبي النازف العاثر

« وهذا هو النسيم يعبث في طريقه بالرمل الناعم في رفق ودعابه

« ويسفيه هبوات في رحاب الفضاء مثل رقيق السحاب

« كما يدفع بأفواج الهوام فرحانة مترنمة الى اعراش الكروم

« ثم هو في تلطيفه وقدة القيظ

« يمسح ببرد راحتيه على وجنتي المضطرمتين

« كما يهدهد ويلثم في مسراه عناقيد الدوالي التي ازدانت بها الحقول والروابي

« وان خفيفه ليحمل لي من الحبيب الف تحية

« ولا تكاد تغيب الشمس خلف هذه الربوة

« حتى تحييني منه تحت جنح الليل الف قبلة ..

« فامض الآن لسبيلك يا نسيم !

« واسعف كعادتك سائر الاحباب والمتاعين

« فاني حيث تلك الاسوار الشاهقة

« سأنعم هناك عن قريب بلقاء الحبيب

« هناك نجوى القلب ونفحة الحب ورجعة الحياة

« تلقاني كلها خالصة من ثغره وحده

« وتحملها انفاسه الى أنفاسي وانا في حضنه »

وهنا في مدينة « هيدلبرج » ذات الاسوار ، بين أطلال القصر القديم ، وآجام الربى المشرقة على النهر ، قضيا اوقات هنية مسكرة ، وتعاهدا على أن يذكر كل منهما صاحبه . وفي اجتماعهما بعد الفراق نظم الشاعر

قصيدته العصماء فى « اللقاء » ومطلعها :

« احقا ، يا ابهى نجوم السماء !

« احقا انى اضمك الى قلبى بعد طول البعاد والجفاء

« يا ويلتاه من ليل الغياب

« اية هاوية هو ، اى عذاب

« نعم ، هذه انت . يا جنة أفراحى وكعبة حبى »

ولكن اللقاء لم يطل غير قليل ، ثم كان الوداع الاخير

مضت مريان فى السادس والعشرين . وبقى الشاعر بعدها مختليا بنفسه أياما فى منزل مضيفه ، والذكرى فى قلبه لما تزل ماثلة حية ، واغانى الحب فيه لا تفتأ ثرة المعين متدفقة :

« يا للغدائر الخلابة التى تيمتنى !

« لقد اوقعتنى شباكك فى أسر هذه الطلعة الاسينة الجلواء ، وليس عندى أيتها الافاعى السود المحببة ما يضارعك

« ليس لى الا قلبى ، وهو أيضا كعهده يتملأ ويتفتح كالزهرة اليانعة . انه تحت الثلج الاشهب والدجن المخيم ، بركان مسجور يجيش بحبك . لقد علت وجهى منك حمرة كما اصطبغت بلون الفجر مراقى الجبال الوعرة

« وآنس حاتم مرة اخرى فى نفسه نفحة الربيع ووقدة الصيف »

ولقد اجابته مريان بأبيات رائعات تناشده :

« والله لا ارضى لك التلف ، فان الحب يذكى الحب ويؤكده ، فابق بصبابتك زينة لصباى

« وما اشدنى زهوا بمحبتك ، كلما سمعت اطراء الناس لعبقريتك

« فانما الحب الحياة وعبقرية الذهن حياة الحياة »
وانطوى جوته على مضض ولوعة دفينة ، ونبا بجنبه المضجع وجفاه طيب الكرى
وفى أوائل اكتوبر ارتحل متنقلا فى جهات متعـرجة متعددة فى طريق المعاد الى ويمار . وفى هذه الاثناء كتبت له مريان أنشودة حنين هى « مناجاة لريح الدبور » :

« يا نسيم الدبور الغربى ، ليت لى جناحيك !
« فانك ان شئت حملت اليه وصف ما بى من ألم البعاد
« ان خفق جناحيك ليذكى فى قلبى نار شوق مخامر
« وتلك هى الازاهر فى المروج والخمائل والربى
« تحت أنفاسك بدموع الندى
« تبكى نسيمك الرخاء الحلو ، كالبلسم
« ولكن ينزل بردا على جفونى المقرحة الباكية
« آواه ! أنى لهالكة أسى ، لولا أملى فى مرآه
« فامض يا نسيم !
« حدثه عنى ، مناجيا قلبه ألطف مناجاة
« واياك أن تحزنه ، بل اكتم عنه أوجاعى
« وقل له هامسا ، ان حياتى فى حبه
« وان نعيمى بالحياة والحب جميعا رهن قربه »

ولكن جوته الشيخ العاشق مضى — حين مضى — حسيرا مبلبل الفكر مهدود القوى تنطق بحسرته تلميحات وأحاجى وكنايات ، وتنتابه هواجس غريبة . وقد تمتم ذات يوم بصوت متهدج: سأكتب وصيتى، لم أعد أستطيع المقام . وكان — على ما فى الرحلة من الشواغل والمصادفات — شجيا حليف الاسى يعالج الرجاء ولا يقدر له من يراه شفاء

ولم ير جوته مريان ، وتكفل الزمن بشـفائه من وجده ، الا ان المراسلة اتصلت بينهما ودامت صداقتهما حتى موته . وظلت هى مقيمة على عهـده حتى آخر

العمر، وان الصليب الذى يزدان به قبرها فى فرانكفورت ليشهد بذلك أبلغ الشهادة فى الكلمة المنقوشة عليه : « الحب لا يموت » ..

وقد اتم جوته نظم ديوانه الشرقى فى عامى ١٨١٤ ، و ١٨١٥ وطبعه كاملا فى الصورة النهائية له عام ١٨١٩ والديوان مقسم على اثنى عشر بابا مختلفة الاغراض . وقد تعمد الشاعر أن يكون كتاب « زليخا » فى المنتصف بين أجزاء الديوان لاعتباره اياه قلب الديوان . وفى الحق انه منه فى مقام القلب الخافق النابض بدم الحياة



ماريان فيلمر
« زليخا الديوان الشرقى »

الديوان الشرقي

للمؤلف الغربي

جعل « جوته » اهداء ديوانه الذى أسماه « الديوان الشرقى للمؤلف الغربى » تحية شعرية كتبها بالالمانية لتكون على دفة الكتاب اليسرى ، ومترجمة للغة العربية على الصورة التى وضعها المستشرق « سلفستر دى ساسى » لتكون على دفة الكتاب اليمنى ، وهذا نص التحية باللغة العربية :

يا أيها الكتاب
سر الى سيدنا الأعز
فسلم عليه بهذه الورقة
التى هى أول الكتاب وآخره
يعنى أوله فى الشرق
وآخره فى الغرب

والمطلع على الديوان الشرقى الغربى يستطيع أن يصور لنفسه شيخوخة ناظمه « جوته » أصدق

التصوير ، اذا هو تطلع الى الشمس دالفة نحو الغروب في اروع مجاليها ، تنشر على الأفــق الفــربى قبل الأفول ضياء شعشعانيا ليس لجلاله مثيل ، وكأنه منها بمقام كلمة الوداع الاخير قبــــل أن تغيب غيــــابها فى جوف الدياجير

واذا كانت فى هــذه الساعة تشتبك الظــلال وتتعانق الاشكال ، وتصطبغ الاشــياء جميعها بصباغ مشــترك ويغمرها وهج شامل ، فلا غرو أن نظم فيها جوته المؤلف الغربى ديوانه الشرقى .

ولقد عالج « جوته » أســاليب النظم فى غزل حافظ الشيرازى ، ولكنــه لم يلتزم قيــودها فى الوزن والقافية التزاما الا فى القليل ، فانه لا يريدها قناعا خلابا خاويا من المدلول، ولايرتضى منأجل العرض التضحية بالجوهر ومن شأن الشيوخ من الفحول أحيانا قلة الاحتفـــال بالنسق وعدم الصبر على التقيد بالقالب . وما حاجة « جوته » الى القالب الظاهر ، وقد أصبحت شخصيته الغنية البارزة فى أشعاره وكتاباته حسبها من طابع مميز وقالب خاص . ثم انه ان يكن قصر عن الشـــــاعرين « روكرت **Ruckert** » و « فون بلاتن **Von Platen** » فى احتذائهما لقوافى حافظ وفنونه فى القريض كما تشهد منظوماتهما فى ديوان « الفزل » و « ورود الشرق » ، فانه لم يزل الاصدق والاعمق منهما تعبيرا عن حياة الشرق نفسها ، هذه الحياة المديدة غير المحدودة . هذه الحياة التى تنــاولها شـــاعرنا منطلقة جارية كماء الفرات ، فاستحالت فى كفه الصناع صورة مفرغة من البلور تشع بألوان الموشور

ويصــطنع « جوته » فى معظم ديوانه أوزانا أشــــبه بالاراجيز، يصب فيها عباب حياته العريضة الزاخرة، فاذا

الديوان معتلج بالحركة الطليقـــة متجاوب بأصـــوات الخليقة . واذا نواحيه عامرة بالاشـــارات تغلب فيها ـ على عادة الشرق ـ لغة الاســـتعارات . واذا الشوارد الغريبة والتواليد الجريئة والتضمين والاطنـــاب . واذا الكلام المرسل فى جوار اللحن المنغم ، والسلاسة المأنوسة بين قيود الوصف المحكم .

فلقد تم لشـــاعرنا فى هـــذا العمر المديد اجتياب عالم الصور بأسره ، واستيعاب معانيها كافة . وفى هذا العمر المديد راق ما كان فى قرارة وعيه كدرا ، وخلص ما كان فى نفسه مكبوتا . ثم أن له اليوم أن يغيب ويظهر فيمـــا شاء من الصور ، دون أن يخشى الضياع على نفسه . وفى قدرته اليوم التعبير عن شـــيخوخته بحمية الشـــباب واساليبه وعباراته . وليس ذلك بمستغرب ممن يرى فى رمز الافعـــوان الملتف مثالا للســـعادة على مدى الايام :

« أيتمنى المرء خيرا من أن يتهيأ له عقد أوله بآخره ؟ »

وميزة «جوته» فى مشرقياته ، انها ليست مجرد تهلل وفورة عاطفية ، واستسلام الى لون متقد من الصوفية لا عهد للغربيين به . بل ان شاعرنا ليجمع الى الاسترسال الخيالى صحة الملاحظة وصدق النظرة ، ويقرن الى التأثر النفسانى سلامة التأمل الموضوعى . ويصدر عن احاطة بالمادة التاريخية ، وعلم بمآتى الأمور ومجرى الاحوال وسير التطور ، وحسن تقدير لاعتبارات الزمان والمكان

ولقد توفر « جوته » بعد أن استقر فى « ويمار » مرة اخرى على مراجعة هـــذه الاشـــعار . وكانت مرتبة على حروف الهجاء فقسمها على حسب الموضوعات الى اثنى عشر سفرا ، وهذه هى بأسمائها الشرقية على الترتيب :

كتاب المغنى . كتاب حافظ . كتاب العشق . كتاب

النفكير . كتاب السخط . كتاب الحكمة . كتاب تيمور . كتاب زليخا . كتاب الساقى . كتاب المثل . كتاب الفرس . كتاب الخلد

ويزعم « جوته » انه يطبع هذا الديوان على اعتباره نسخة خاصة للخاصة من الاخوان ، لابوصفه كتابا كاملا من جميع الوجوه للقارىء العام . وليس فى ذلك على كل حال ما يدعو للعجب ، فاننا لو امعنا الفكر لألفينا ان كل كتاب انما يكتبه مؤلفه من اجل مريديه وانصاره والمعجبين به. ويعتذر «جوته» عن تعجله فى طبع الديوان الى تقدم سنه. فلو انه كان اقرب الى الشبيبة لاستبقاه فى قمطره امدا طويلا كعادته قيد التعديل والتنقيح ، كما انه يؤثر ان يتولى فى حياته اخراجه بنفسه على أن يترك جمعه لمن بعده كما فعل حافظ ، لأن نشر مطويه ومثوله مطبوعا نصب عينيه أحفز له على تقليب النظر فيه كل حين لتوفيته حقه من الكمال

ونحن فيما يلى نعرض لبعض أسفار الديوان بالتعريف والاختيار بقدر ما يسمح به المقام ..

كتاب المغنى

يتغنى الشاعر فى هذا الكتاب بمظاهر الحياة الشرقية كما وقعت فى نفسه . ولقد كان يود ان يضيف اليه أشعارا فى المديح عرفانا لفضل أوليائه وتحية لأخصائه ، ليكون فى ذلك رضى للأحياء منهم واعلاء لذكر الراحلين . وهو يلاحظ على شعر المديح فى الشرق انه مما لا يستطاب فى الغرب لذهابه مذهب الغلواء وكيله الجزاف للثناء . والقصيد الحر الصادق الشعور هو القمين وحده بأن يجلو مناقب الممدوحين من العظماء الذين تخلدهم آثارهم ويزداد على الزمن اكبارهم ولا ينقضى ديننا لهم . ويقول

« جوته » انه ادى بعض هـذا الدين على النسق الذى
اختاره من مديح سبق نشره على الناس
ونحن نجتزىء من سفر المغنى – وهو السفر الاول من
الديوان – بالمقطوعة الآتية :
« اذا ما عزف اله العشق عن يسارى بمزماره الشجى
الطروب على حافة جدول سلسال ، وعن يمينى نفخ اله
الحرب فى بوقه الصاخب الرنان فى حومة الميدان ، فان
السمع لاشك منصرف عنه الى الناحية الاخرى ..
ولكن الصخب يحرم السمع بهجة الطرب .
فاذا استمر النغم الرخيم مرفوع العقيرة مسموع الرنين
وسط الوغى القاصف الصخب ، فانى عندها لأسخط
وانقم ، وان عقلى ليشت عندها ويشرد . فهل ترانى
استوجب على ذلك الملامة من احد ؟
واذا تزايد تطريب الناى واشتد ضجيج البوق معا ،
فنسيت نفسى وخرجت من الغضب عن طـورى ، ففيم
العجب ؟ »

كتاب حافظ

لا يحب « جوته » اطالة الكلام فى أشعار حافظ ، لانه
يرى الخير كل الخير لك فى أن تحسها وتجريها فى نفسك
وتسترسل معها دفعة واحدة . فهى فيض من الحيـاة
زلال سلسال لا ينضب معينه . وحافظ حكيم طروب
ياخذ فى اثناء الطريق نصيبه من الحياة الدنيـا ، ويلقى
نظرة من بعيد على الاسرار الربانية العليـا . واذا كان
حافظ يزهد فى الملذات الغليظة الحسية فانه كذلك يغفل
عن الفرائض الدينية . ثم أن شعره مع ما يبدو فيه من
ترغيب وهداية دائم الاختلاج بحركة شكوكية
وقد استهل « جوته » كتاب حافظ بهذا الشـعار

« هلم نسم اللفظة العروس ، ونسم المعنى العريس ،
لقد شهد هذا الزفاف من قرأ شعر حافظ »
وهذى بعض مختارات من الكتاب :

لقب حافظ :

الشاعر « جوته » ـ : قل يا محمد شمس الدين ، ما بال قومك الاكرمين يدعونك حافظا ؟
حافظ ـ : أحييك تحية التعظيم . وجوابا على سؤالك اقول : ان ذلك لحفظى القرآن الكريم عن ظهر قلبى ، واستيعابى ذخره المصون عن التبديل والتحريف فى خزائن صدرى . ولقد حمانى كل مكروه ، كما حمى جميع الذين يعلمون علم اليقين ما أنزل على النبى من القول المبين . ذلك هو السر فى تسميتى حافظا

الشاعر ـ : أما والأمر ما تقول ياحافظ ، فأرانى حريا بمشاركتك فى لقبك . والمرء اذ يفكر تفكير غيره يصبح لا محالة مثله ، فأنا شبيهك حق الشبه . اننى قد طبعت فى ذهنى كتبنا المقدسة بنصها وحرفها ، كما انطبعت أسارير السيد المسيح على صفحة المنديل الذى مسحت احدى الصالحات به وجهه فى طريق جلجله . واننى على الرغم مما يداخلنى أحيانا من التشكك والمعارضة والتجريد ، لواجد فى طلعة الايمان الساجية انسا وراحة

نهاية ولا بداية :

« أنت لاتؤذن بانتهاء، وهذه عظمتك . وكأنما لاعهد لك بابتداء ، وهذه قسمتك . وشعرك انما يدور على نفسه كالفلك الدوار، سيان البداية والنهاية ، والذى يرد فى

الوسط ، فانه وارد بأجلى بيان بما فيه من اللاحق ، وما فيه من السابق

« انك المعين الشعرى لأنواع الملذات ، وعنك صدورها فيضا فى اثر فيض لاينتهى مداه : هنا فم لا يبرح نزوعا للتقبيل ، ونشيد يصدح بالحب حلوا عذبا كالسلسبيل ، وحنجرة ملتاحة على الدوام عطشا الى الشراب ، وقلب طيب العنصر متفتح للبث والنجوى

عفاء على الدنيا كلها عداك . فأنت يا حافظ وحدك دون العالمين من أشتهى معارضته . ولكم من المسرات والتباريح نحن فيها شريكان ، بل اخوان توأمان .

« الا فليكن الحب والشراب لى مثلما كانا لك ، مطمح الهمة ومطلب الحياة .

ويا اناشيدى !.. رجعى انغامك ، رجعيها متقدة بحر ضرامك . فانك اليوم لأعرق ما تكونين عراقة ، وأجد ما تكونين جدة »

محاكاة :

« انى لارجو أن أوفق الى أسلوب نظمك ، يا حافظ . وما أحرى ترجيع القافية أن يطربنى مثلما أطربك . وليس لقافية أن تتكرر بعينها الا اذا أفادت معنى مغايرا كما صنعت فأجدت . **أيها الشاعر الذى أوتى ما لم يؤته أحد من الأوائل والأواخر**

« وما من شك فى أن القوافى تعجب وتطرب . ويلذ لصاحب القريحة التفنن فيها . ولكن الطبع يمجها ان كانت قناعا معروضا فحسب ، ليس وراءها جسد ولا روح . ولن تجد الفكرة لذاتها الفتنة الجديدة بها الا اذا استحدثت قالبا جديدا لها واطرحت الخامد الجامد القديم »

كتاب العشق

يستحضر الشاعر فى هذا الكتاب عشاق الشرق من ظلمات الماضى . وينوه بتعظيم الخلق كافة للحب حتى ليذكرون على الدهر أسماء المحبين ، كما تذكر أسماء الخالدين :

« أجل ، الحب فضيلة عظمى . ولن تجد نعمة هى انفس منه . انه لا يهب الجاه ولا الثراء ، ولكنه يجعل صاحبه صنو الابطال العظماء .

« وكما يتحدث الخلق عن النبى فانهم كذلك ليتحدثون عن وامق وعذراء . بل هم لا يتحدثون عنهما ، وانما حسبهم ان يذكروهما ، ان اسمهما على كل لسان . أما وقائعهما ، وأما حقيقة أمرهما ، فليس لأحد بها علم . لقد احب أحدهما الاخر وهذا كل ما نعرف وفيه الكفاية »

والكتاب يصف مايتملاه العاشق من سعادة فى سويعات القرب ، وما يعانى بعدها من حرقة الفراق ومرارة الحرمان فى قصائد عديدة موسومة كلها بطابع الشرق واخيلته .

كتاب مطالعة :

« سفر ما أعجبه بين الأسفار ، ذلك سفر العشق . لقد امعنت فى مطالعته . بضع صفحات من اللذة وابواب مستفيضة فى الألم . اختص الفراق بجزء كامل . واقتصر اللقاء على فصل وجيز ، على مقطوعة . وللأشجان مجلدات مذيلة بحواشى لا حصر لها ولا آخر »

أسير :

« هنا الطرف الادعج والثغر الأحوى اللذان حظيت

منهما باللحاظ والقبل

« هذا موام سبط . وانعطاف بسمة لينة لأنما جعلت
للمتعة في جنة النعيم .

« اجل هي بعينها التي جادت بهـــذا لله . هي التي
سمحت بالوصال وولت هاربة .

« اكانت هنا حقا ؟ .. واين مضت ؟ ..

« لقد يمتنى ورلسنى ما حبيب اسيرها »

سلام :

« واها ! .. ما كان اسعدني !

« كنت اتمشى خلال الحقــول فاذا الهـــدهد يطفر في طريقي .

« وكانت بغيتي التفتيش هنا وهناك بين الاحجار من ودعات متحجــــرات مما تخلف عن البحـــــر القـــديم .
فاعترضني الهـــدهد في اختيـــال ناشرا تاجه متبخترا في هيئة المدل الساخر . وانه لسخر الحي بالميت

فقلت له : « يا هدهد ؟ .. في الحق انك لطائر جميل .
انطلق يا هدهد ! .. وبلغ حبيبتي اني لها وملك يمينها ما حييت . وكذلك كنت من قبل ، رسول الحب بين سليمان وملكة سبأ »

فقال الهدهد : « ان التي انت موفدي لها قد اودعتني كامل سرها ، في نظرة واحدة من ناعس طرفها . وانا لا زلت كما كنت اغبطك دواما على ســـــعادتك . فاحبب واحبب فانه مكتوب لك في الطــــــالع دوام الحب الزاهر بقية ايامك مقترنا بالقوى الخالدة »

وانتحى الهدهد الى نخلة فاتخذ له عشا بين شماريخها يرمي هنـــا وهنــــــاك باللحاظ . ما أبدعه ! .. انه أبدا يرهانا »

كتاب الساقى

لايمكن ان يخلو ديوان شرقى من ذكر المدام والساقى الغلام . ويقول « جوته » انه ـ بمقتضى ادب العصر ـ يتناول هذا الغرض الاخير بمنتهى الطهر . ويقدم لذلك بأن الميل المتبادل بين الشباب والكبر هو على أصح معانيه علاقة تهذيبية بين معلم ومتعلم . وتعلق الفتى بمن يكبره سنا ليس بالظاهرة النادرة ، ولكن النادر هو حسن الالتفاف الى الاستفادة منه . وليس ادل على ذلك من مراقبة العلاقة بين الحفيد والجد ، ففى هذه العلاقة تنمو ذهنية الاطفال حق النماء ، لأن همهم يكون منصرفا الى الشيخ المحبوب يرعون وقاره ويطيعون كلمته ويعون ما استطاعوا وعيه من خبرته .

ومالنا نقصر الكلام على سن الطفولة ، وهذى سائر النفوس المطبوعة على الطهر تأنس من نفسها فى كل أطوارها حاجة الى هذه العلاقة القائمة على التقدير والاجلال . ولئن كان الصبى يستغل أحيانا عطف الشيخ لادراك رغائبه الصبيانية واشباع بدواته البريئة ، الا أن اصطناعه التلطف والمراضاة يحمل على التساهل والاغضاء . وليس الشيخ بأقل سعادة بهذه العلاقة ، فانه ليطربه ويتصباه أن يرى الفتى الغض الطموح مأخوذا بالعجب والاعجاب برجاحة عقله وحكمة سنه ، فى حين تنبثق شعاعة من هذا العقل فى النفس الناشئة الذكية

والى القارىء بعض المقتطفات من « كتاب الساقى » :

الشراب والساقى

« فلنكن سكارى جميعا . فالشباب سكر بلا خمر .

والشيوخ يستدركون الشباب بفضل الشراب . ولا غرو فالحياة المسكينة معذبة بالهم ، وليس يطرد الهم مثل الكرم .

« الخمر محرمة بلا ريب ، فاذا كان لابد من شربها فلا تشربها الا صرفا ، فانك ان عاقرتها ممزوجة كنت مضاعف الاثم

« اقول غير مبالغ فى القول : من كان منكم غير قادر على الشرب فليس يصح له حب . كذلك انتم ايها الندامى لستم احسن حالا ، فمن كان منكم غير قادر على الحب فليس يصح له شرب

« تعال أيها الغلام ، يا رمز الشباب ! لماذا تلزم الباب ؟.. كن من اليوم نديمى تكن الخمر كلها رحيقا

« يا لك من خبيث صغير !.. ابق من الخمر على رشدى . وهذا هو المهم عندى ، لكى آنس بقربك أيها النديم الخبيث على الرغم من سكرى

عربدة :

« اليوم فى البكور قامت فى الحانة جلبة يا لها من جلبة. صاحب الحان والقيان والمشاعل والزحام ، وكم من لجاج بينهم وخصام ، والناى يعزف ، والطبل يقرع . عربدة ما أفظعها عربدة . فدخلت مع الناس فى هذه الغمرة من الحب والغبطة

ان الخلق لينعون على الاستهتار وخلع العذار ، ولكننى مبتعد فى حزم وسلام عن مجادلة فقهاء المكاتب ووعاظ المنابر

الشاعر والنديم :

« يدعونك الشاعر العظيم كلما طلعت فى الأسواق . وانى

لشديد الاصفاء حين تنشد ، وانى لأشد أصفاء لك حين تصمت

« ولكنى احبك اعمق ما أحب ، حين تقبـــلنى قبلة التذكار . فان الكلام يذهب . أما القبلة فباقية فى صميم الفؤاد .

« ولئن كان لنظم القوافى قدرها الكبير ، فان خـيرا منها اطالة التفكير . فأنشد القوم فنـــونا من النظم ، واصمت صمتك البليغ مع النديم

كتاب الفرس

فى هذا الكتاب يذكر « جوته » دين المجوس ، ويرى أن عبادة الشمس والنار مهما تكن معنوية ، فانها عند أهلها عملية جد عملية . ولاغرابة فى أن يتحمس «جوته» لتعاليم من يعبدون الله فى مظاهر قدرته ، فى الشمس والنار والهواء والماء وفى خصب الارض وحياة النبات . فان هـــذا التأليه للطبيعة يتفق واحساسه العميق بها حتى لينطق به كل سطر من « وصية المجوسى الاخيرة » يزجيها لاخوانه فى الدين وهو من الحياة فى ذروة القمة المغمورة بالنور الأزلى :

« اذا الشمس فوق أجنحة الفجـــر شـع نورها ، واستعلى قرصها الوهاج فوق الذرى ، فمن ذا الذى لا يرفع اليها البصر خاشعا ؟

« لكم أحسست فى حيـــاتى المديدة ، مرارا عديدة لا تحصى ، لدى شروق الشمس فى علاها ، اننى عارج اليها ؛ لكى أشهد الرحمن على عرشه . وأسبح باسمه ، سبحانه مصدر الوجود ورب العالمين ، ولكى أســـلك الصراط المستقيم ، صراط الذين هم أهل لهذا المشهد العظيم ،

ولكى اهتدى ابد الدهر بنوره العميم .

« وبعـد ، فهذى وصيتى المبـاركة اودعها صدور اخوتى ، واوكلها الى صدق عزائمهم :

« عليكم القيام بفرائض الحياة الشاقة كل يوم . وما بكم حاجة بعدها الى الجدال فيما ليس لكم به علم » . .

ويلى هـذا تفصيل الفرائض ، وكلها ناطق بعبادة « جوته » للحياة وتقديسه الجهاد فيها

كتاب تيمور

يرى « جوته » ان كتابا كهذا كان من حقه أن توضع دعائمه بعـد عامين كاملين من العكوف والتـوفر على موضوعه حتى يتأتى للشاعر مواجهـة هذى الخطوب الجسام بما يتفق وروعتها وترامى آفاقها . كما يجمل به تخفيفا لفجعاتها من حين الى حين أن يظهر الاستاذ النديم نصر الدين جحا الى جانب مولاه الطاغية المخرب وما اكثر ما يروى الرواة من نوادر جحا مع العاهـل المغولى . ويخص « جوته » بالذكر هذه النادرة :

(كان تيمور — كما هو معلوم مأثور — دميم الخلقة اعور اعرج ، واتفق فى ذات يوم والاستاذ نصر الدين بين يديه ، أن امر تيمور بالحلاق. ولما أتم الحلاق حلق رأسه عرض له بالمرآة كالعادة . فلما رأى تيمور فى المرآة قبحه اجهش بالبكاء والى جانبه بكى الاستاذ . وظل الاثنان يبكيان نحو ساعتين. وأقبل بعض الخلان فجعلوا يواسون تيمور ، ويسرون عنه بالحكايات حتى نسى. وكف تيمور عن بكائه ، ولكن الاستاذ — ويسمونه خوجة جحا — لم يكف بل زادت عبراته انهمارا . فقال له تيمور : «وبعد : انى نظرت فى المرآة فرأيت فرط قبحى فحزنت — وأنا صاحب الحول والطول وخزائن المال والجوارى الحسان —

ان اكون بهـــذا القبح . وانت ؟.. ماذا يجعلك تبكى وتمضى فى البكاء ؟ »

فأجاب الاستاذ : « انك صادفت وجهك فى المرآة مرة ، فلم تطق رؤيته وطفقت تبكى . فكيف بى انا المفضى على برؤية وجهك صباح مساء ! فاذا لم ابك ، فلمن البكاء ؟ »

فضحك تيمور لقوله حتى استلقى على ظهره

ومع ان شاعرنا جوته لم ينفسح له الأجل لتحقيق ما رسمه لنفسه ، ووقف عند المقطوعتين اللتين نظمهما ولم يشتمل كتاب تيمور على غيرهما ، الا ان هذا القليل من الشاعر يغنى عن الكثير من غيره

الشتاء وتيمور :

« هذا الشتاء أنزل بالقوم البلاء . لقـد تنفس بينهم انفاسه الباردة فثارت صرصرا عاتية ، وبعدها سـلط عليهم زعازع زمهريره وغواشى صقيعه . ثم انحدر حتى مجلس تيمور واهاب به مرعدا متوعدا : « على رسلك يا تيمور ! لا تسرف فى بغيك أيها الشـقى ! أيها الطاغية الغشوم !.. أو لم يكف القلوب ما اصطلت من عذابك ، واكتوت به من نارك ؟.. فان تك ماردا من الشياطين فأنا المارد الآخر ، وانك شيخ تمرس بالسنين وتمرست به ، وانى لكذلك. وانت المريخ وانا زحل، وكلا الكوكبين شؤم ، وفى اقترانهما ايذان بالويل والثبور وعظـائم الأمور . وانت تهلك الانفس وتخمد جذوتها ، ولـكن رياحى أقتل بردا مما تطيق. ولئن كانت عصاباتك الهمج قد سامت المؤمنين سوء النكال ، فقد كان ما كان !.. وسترى اذا آن الأوان باذن الله شرا مما جرى . ووالله انك لست لى بكفء ، وهو على ما اقول شهيد . أجل ، والله سوف لا تغنى عنك حرارة الوطيس المسجور ولا شواظ نار الصيف شيئا. لن يعصمك عاصم من برد الموت»

قارورة العطر :

« لكى يتحبب اليك المحب بالعطر العبق ويزيد فى انشراحك وبهجتك . يهلك العشار على النار العدد العديد من اكمام **الورد** .

« اجل . انه لكى يستقطر ملء قارورة صغيرة تهدى اليك . قارورة مخروطه مستدقه كسبط اناملك ، لابد له من عالم منها : عالم من القوى الحية التى تتفتق عنها الورود مؤذنة بهيام البلبل بها وترجيعه شجى أغانيه فى حبها

« فهل ترانا نذكر هـذه الآلام ، والعطر يفعم حسـنا ويزيد فى متاعنا ! . .

« لكم هلكت انفس لا عداد لها فى سبيل عظمة تيمور !»

كتاب زليخا

حاتم يناجى زليخا :

« اذا كانت زليخا بيوسف مفتونة
« فليس فى هذا الامر عجيب عند من يعرفونه
« يوسف شاب فى زهرة الشباب
« وشأن الشباب عند النساء الظفر بالاعجاب
« ثم ان الكل يقول انه كان جميلا يسبى العقول
« كذلك زليخا كانت من النساء الحسان
« فالاثنان فى حظهما من اقتسام السعادة العظمى سيان
« اما انت يا من أطلت الدلال وتماديت فى هجرى !
« ما أعجب أن تلحظينى اليوم كالعاشقة باللحاظ الوامقة
« ما أعجب أن تحبينى اليوم ، على وعد من الوصال غدا !
« هذا هو العجيب فى أمرك وأمرى
« هذا هو العجيب الذى سوف لا أبرح أتغنى به فى شعرى
« فأنت لى زليخا الحبيبة حتى آخر عمرى »

الفرصة هنا هى اللصة :

خاتم : ليست الفرصة اذا سنحت هى التى تعلم السرقة
فانك سنحت لى يا حسنائى كأجمل فرصة
فاذا الفرصة نفسها هى اللصة ، أكبر لصة
لقد سلبتنى كل ما بقى من الحب فى قلبى ،
فأسلمته جميعا اليك ، والقيت به عند قدميك
ولما كان الحب فى اعتبارى ، هو الخير الاكبر والغنم
الاعظم فى حياتى ،
فقد أصبحت – وأنا المسلوب المعدم – لا أرتجى الحياة
الا على يديك
واليوم قد صح عندى الرجاء
فهذا أنت ينطق الاشفاق على والرحمة بى فى عينيك
فياله من بشير لى بقرب المصير وطيب النعيم بين ذراعيك

زليخا : لقد طربت نفسى لحبك ، وغمرتنى السعادة
لاستلاب قلبك ،
فمالى على « الفرصة » ملام ولا معتب
ان تكن قد سرقتك « الفرصة » فانى هانئة بهذه السرقة
وفيم السرقة ؟ .. أسلم نفسك لصاحبتك راضيا مختارا
فانه ليطيب لى ايما طيب ، أن أعتقد أنى أنا ، أنا السارقة
ان هذا الذى بذلته لصاحبتك ، وكنت الحكيم فى بذله
لعائد عليك بالربح الجزيل
فهذه راحتى وزهرة شبابى أهديكهما راضية مسرورة ،
فاقبل هديتى
كفاك هزلا ، ولا تقل انك أصبحت معدما
أليس لنا فى الحب غنى ، يا له من غنى !
يا حبيبى ! ان حبيبتك اذا ما ضمتك الى صدرها
رجحت سعادتها بسعادات الدنيا جميعها

كتاب السخط

ليس فى طاقة الانسان أن يكبت فورات غضبه ويكظم نوازى نقمته ، بل من الخير ان يحتال على تنفيسها ولا سيما ان كان حرج صدره بحيث يكدر صفاء الخاطر ويعتاق الخيال عن تحليقه . والشعراء ، أمر ما يعانونه سوء التقدير . فتراهم يقابلونه بالمغالاة بأقدارهم ، والمفاخرة بمزاياهم . وليس بخاف ان الناس اذا ذكروا العظماء فأول ما يحبون امتداحه فيهم التواضع ، ثم لايفيضون فيما عداه من المناقب والملكات . والتواضع ابدا حليف المصانعة ، وضرب من التمليق مقصود به الى انامة الحسد أو الشعور بالغضاضة بين فاضل ومفضول ، فهو فى الظاهر تسوية ، وفى الباطن ترضية ، وكأنه اعتذار النابغ عن نبوغه . وما حسن المعاشرة عند الناس الا انكار كل كبير لنفسه ، وفى هذا حكم على المجتمع بالبطلان ، اللهم الا اذا تأتت للكبير القدرة على أن يترضى اعتزاز الغير بأنفسهم ليرتضوا منه اعتزازه بنفسه . ولقد كان

شعراء الشرق يبسطون اللسان فى ممدوحيهم بالهجاء كلما أخلفوا منهم الظن وخيبوا الرجاء ، أما شاعرنا فكان ذا حظوة عند الأمراء . وأما شكواه من سوء التقدير فمن الدهماء وعليها يصب جام نقمته وسخطه

البغض بالجملة :

« انى لأحب البغض ولا غنى للفؤاد عن حبه ، وليس بى بغض شخص بعينه . فاذا كان لابد لى من البغضاء فها أنذا على الأهبة ، أبغض أصنافا من الناس بالجملة »

اعتبارات سخيفة :

« يعاب على المرء مدحه لنفسه . ولكن ، البس فاعل الخير بالمادح نفسه بالخير الذى هو فاعله !.. ثم اليس الخير — لولا التعمية فى الكلام — هو الخير على كل حال وبالرغم من كل مقال !

ايها الحمقى ، ما دمتم تلتذون جنونكم ، فدعوا الحكيم الواثق بحكمه يلتذ الاستخفاف بتافه محامدكم وسخيف اعتباركم »

ماذا فى الكبر :

« ما بالكم ايها المشايخ الدجاجلة ، تذمون نفخة الكبر العاتية ؟.. لو شاء الله لى ان اكون دودة لكان خلقنى دودة »

كيد الوضيع للرفيع :

« كيف الوهم ، وهذا لسان حالهم يقول : ليس فى الامكان ان نرفع رفيعا دون ان نضع من انفسنا . هل كنا نحيا لو تركنا غيرنا يحيا ؟ » ..

شاعر الكنود :

« ما من سعيد هانىء الا بادره الجار بالتنغيص . كذلك لم يعش ذوالفضل حياته العاملة الا كان هم الناس فى رجمه ، فاذا ما قضى نحبه جمعوا على الفور الهبات الوفيرة ليقيموا — لتكريم هذا المنكود بهم — تمثالا . ولو عقلوا وجه مصلحتهم لكان الأولى لهم ان يكتموا امر المسكين ، ويدعوه فى طوايا النسيان ابد الآبدين »

الدناءة :

« [illegible] »

التفكير والحكمة والمثل

ليست الحكمة وقفا على الشيخوخة . ولكن الحكيم لاشك يزداد مع السن حكمة بما يجتمع له على تطاول الايام من المشاهدات والتجاريب تنضم بعضها الى البعض فيستوفى بها الجملة ، ويبلغ القمة . فاذا اضفنا الى هذا ما هو معلوم مشهور من الالمان من انه لا اديب منهم الا وهو بطبعه من طلاب الفلسفة ونقاد الاخلاق . لخلص لنا التقدير الصحيح لحكمة «جوته» كبير ادبائهم وهو فى السبعين من عمره الحافل المديد . فهذه الحكمة التى تعرض لآفاق الفكر جميعها ، من فنون وعلوم وشعر وفقه وفلسفة ، لا تنحصر فى حيز بعينه كالازهار المجففة بل هى الشجرة الفينانة تمتد اغصانها ناضرة الريحان وتتفتح ازاهيرها متعددة الالوان ، فى كل صفحة من صفحاته وفى كل سفر من اسفاره سواء كان منظوما أو منثورا ، مبحثا علميا أو نقدا فنيا ، قصصا أو ترجمة لحياته او مسرحية من عديد مسرحياته

و « جوته » مثال الحكيم . والذى يجعله اتم تمثيلا للحكمة هو انه أوتى ما لا يؤتاه الحكيم عادة من مختلف المواهب وشتى الدوافع النفسية

ويدين جوته بحكمته الا انه لا ينفك يضم الى نفسه ما تشعب ، ويؤلف المتعارض من الميول والنزعات كما تلتقى اقطار الدائرة فى المركز . فليس هو من أهل المذهب المدرسى ولا المذهب الابداعى ، وانما هو فيما وراء هذا وذاك . وليس هو بالمسيحى ولا الوثنى ولا غير ذلك من العقائد المحددة ، لأنه فى المحل الاوسط بينها جميعا ؛ ونعنى به الاقرب الى المركز حيث لا تشعب ولا افتراق. فهو يستوفر ويستكثر على الدوام من كل شىء . وكأنما عنده سر يجعل القيم المتفاوتة ووجهات النظر المتضاربة تجتمع فى عيشة واحدة ، بل ينضاف بعضها الى البعض فيحصل من تضافرها زيادة الكل . ولم يكن « جوته » فى موقف سلبى يترك الاشياء تقبل عليه فحسب ، بل كان فعالا ايجابيا يسعى لها ويجذبها اليه من شتى الآفاق مهما كانت غريبة وسحيقة . والعجب العجاب أن نجد فيه مجموع هذه الاشتات الهائلة كتلة متماسكة . وثمة عظمة « جوته » الحكيم

والقارىء لا ريب قد لمس حكمة شـاعرنا فيما تقدم من المختارات . وسيلمس ـ على نحو اظهر واوضح ـ ما ذكرناه من هذا الجمع العجيب مجلوا هنا فيما اخترناه له من هذه الكتب الثلاثة

وهذه الكتب تصدر عن تجاريب شاعرنا وحكمته بعد بلوغه غاية السن . وهى حافلة بالهداية والعبرة . ولا شك فى أن «جوته» أفاد الكثير فى هذا الباب من مطالعاته لترجمة كتاب « العظات » لفريد الدين العطار وكتاب « قابوس » فضلا عن المامه بحكم لقمان وبيدبا وغيرهما. ونحن نجتزىء بفقرة من كل سفر من أسفار « جوته » الثلاثة ، على سبيل المثال :

لذة الاحسان :

« ما احلى نظرة الجارية ذات الدل وهى تغمز بطرفها .
ونظرة النديم تلمح عينه بالرضى ساعة يحتسى كأسه .
وما احلى تسليم السيد الآمر يشملك بعطفه ، وما احلى شعاع الشمس فى الخريف ينعشك بدفئه
« فليكن احلى من هذه جميعا فى نفسك تلك الرقة تمتد بها كف الفقير فى طلب الصدقة ، وتتلقى منك بالحمد الجزيل ما تجود به
« ما احلاها وقتئذ نظرة ! .. وما احلاها تحية ! .. وما احلاها بلاغة فى السؤال
« تأمل هذا فاذا أنت الكريم المحسن على الدوام »

أينا البخيل ؟

«دعوتني بالبخيل، فهلا اعطيتني مايمكن ان اجود به !»

المؤمن الصابر :

تحدرت من السماء الى لجة الخضم قطرة مرتجفة . فانحت عليها الامواج صفقا وضربا . ولكن الله جزاها عن صبر ايمانها خيرا . فوهب لقطرة المطر قوة واعتصاما فاحتوتها الصدفة فى حرز حريز ، وأتم عليها العز والجزاء الاوفى فهى اليوم على التاج درة تتألق فى العلياء ساطعة اللمح سنية البهاء »



نقش على الخشب من الفن الاسلامى



الغلاف العربى للديوان الشرقى

كتاب الخلد

جزاء المجاهدين الشهداء :

« ليندب الاعداء قتلاهم ، فانهم من الهالكين . اما الشهداء من اخواننا ،فلا تندبوهم فانهم أحياء في أعلى عليين
« لقد فتحت السموات السبع أبوابها لهم اجمعين .
وهم اولاء يقرعون أبواب الجنة يدخلونها بسلام آمنين .
وقد اخذ منهم العجب ، وغلبت عليهم نشوة الطرب ، اذ يجتلون من مجالى الجمال والجلال ومطالع السنا والبهاء ، ما اكتحلت به عين النبى فى ليلة الاسراء ، اذ اقله البراق الى السماء ، وطاف به السبع الطباق فى لحظة خاطفة

« هناك ، فى تلك الجنة الوارفة ، تسمو ـ جنبا الى جنب كأشجار السرو الباسقة ـ أشجار المعرفة ، يعلو فروعها الفارعة ثمر جنى من تفاحها الذهبى . وهناك اشجار الخلد فينانة كثيفة ، تمد ظلالها على مفارش العشب المنمنمة الوشى ، وعلى منابت الازهار شتى الشيات مختلفة العطر

« وفى هذه الجنة ، جنة النعيم ، تقبل على أجنحة النسيم اسراب الحور العين . فانعم أيها المجاهد الشهيد بالنظر اليهن . وبالنظر وحده ترتوى غلتك ، وتشبع شهوتك . وانهن ليقبلن عليك ، ويسألنك عما أتيته من جلائل المساعى ، أو ماخضته من المعارك الحامية الدامية المحفوفة بالمهالك

« ان كونك بطلا أمر مفروغ منه مقطوع به عندهن ، والا ما كنت هنا بينهن . ولكن أى الابطال تكون ؟ .. ذلك ما ينشدن عرفانه . وسرعان ما يعرفنه من جرحك ،

الذى نقش على صدرك اثرا هو حسبك تذكار فخار . ووسام مجد وقلادة جدارة . ان المال فان ، والجاه زائل ، ولا يبقى الا طعنة كهذه لقيها المؤمن فى سبيل الله

« وتذهب بك الحور العين الى خمائل بالكروم معروشة ، ويملن بك الى قباب بالزرابى مفروشة ، تدعمها اساطين من حجارة كريمة متلألئة متالقة ، ذات الوان متقلبة ، يموج بعضها فى بعض . انهن يدعونك فى لطف وايناس ، وقد رشفن رشفة بطرف الشفة من الكأس ، الى شراب اهل النعيم من عصير كروم لا كالكروم ، ذلك هو الرحيق المختوم

« وانت هنا مردود الى عنفوان الشباب مجدد الاهاب . وهن ابكار اتراب جميعهن ، لا تفاضل فى روعة الحسن ونضرة اللون بينهن . فان ضممت احداهن الى صدرك فقد ضممت سلطانة عظيمة ، هى لك فى مقصورتك نعم الخدينة . وحاشا أن تفتر بالحسن منهن حسناء ، فيداخلها الصلف والخيلاء ، وحاشا أن تطوى واحدة منهن صفحة البشر وتظهر الكمد لطارىء من الغيرة أو لاعج الحسد . بل كل تحدثك عن محاسن غيرها أصدق الحديث واطيبه . ولا تصدك ان شئت عن مجالس الاخريات ، بل يتسابقن جميعا على السواء للقيام على خدمتك ، وتهيئة ما فيه تمام مسرتك

« فأنت من الحور العين فى جمع عظيم زاخر ، ثم انت مع ذلك فى صفو من العيش ناعم البال والخاطر . وانه لمطلب معجز الدرك عزيز ، ومن حقك أن تطلب الجنة من أجله

« فأنعم بهذا الصفو الذى لا كفاء له ولا عوض منه ، بين أسراب من الحور العين لا يضجر معاشرها ، وأكواب من الرحيق المختوم لا يسكر معاقرها . نعم الصفو المقيم ، ونعمت جنة النعيم »

الشاعر الغنائي

لا يذكر الذاكرون الشعراء الغنائيون عند الالمـان ، الا كان جوته أول من يسبق اسمه على كل لسان

ولقد كان جوته روائيا ، ومؤلفا مسرحيـا ، وناقدا للفنون والادب جميعا ، وصاحب مذكرات فى ترجمـة حياته ، واخرى فى وصف أسفاره ورحلاته ، كما كانت له مشاركة فى البحوث العلمية نذكر منهـا خواطر فى « العلوم الطبيعيـة » و « دراسـة فى البصريات » و « نظرية فى الالوان » و « رسالة فى أطوار النبات » .

ولكن هذا كله على وفرته وعلو قيمته لم يصرف أحـدا من أهل الدرس والرأى فى جوته عن الحكم بأن أخص ما تتميز به هذه العبقرية الشاملة الفنية ، هو ما أوتيه صاحبها من فيض القريحة الشعرية ، وان أبلغ مظـاهر هذه القريحة الشعرية ، هو ما كان يواتى صاحبها من الشعر الغنائى خاصة

والشعراء الغنائيون يصدرون عن بواعث من الالهام لا حصر لها . والناظر فى شعر جوته الغنائى ، لا يخطىء ان يجد ملهمه الاكبر « الحب » . ولا غرو . فالرجل لم يكن فى وقت من الاوقات خليـا فارغ القلب منه . فقد انتظمت حياته سلسلة غراميـات متصلة الحلقات حتى قبيل وفاته . وبين ايدينا أغان له فى الحب منـذ أن كان طالبا فى السادســة عشرة ، الى ان نيف على السبعين من عمره المديد . وهى كلها من وحى الحقيقة الواقعة . ولم يخرج الشاعر فى نظمها عن حد البساطة ، البساطة المجردة من فاخر التوشية وغرائب التلوين ، البساطة المجردة من كل عبارة أو استعارة من شأنها البعد بالقارىء عن هذه الارض ، والتدويم به فى عوالم أحلام مما تخلقه الاوهام

وقلما يقع القارىء فى هذه الاغانى على حوادث نادرة خارقة ، أو على شخصيات شاذة متناقضة ، أو على مواقف محيرة مروعة . وخلاصة القول انها فى جملتهـا بمنأى عن الغلـو والاغراق ، لا تنحدر جارفة مدمرة كالسيل الدفاق ، ولا تصطنع جلجلة الابواق . ذلك ان لشـاعرنا منحى آخر ينحوه . انه ينحو منحى الاغانى الشعبية الالمانية الاصيلة التى يتركز سحرها فى بساطة العواطف وبساطة التعبير عنها فى غير تزيد ولا تعمل . ولقـد كان جوته ـ فوق كونه أقـدر أهل زمانه على الصياغة الفنية فى اللغة الالمانية ـ أكثرهم « طبيعية » فى شعوره وتعبيره . والى هذا الجمع النادر بين مقدرتين فى ظاهرهما متعارضتين : « الفنية » و « الطبيعية » يرجع الفضل فيما لأغانى جوته من الميزة الظاهرة وعلو الشأن .

ولقد قدمنا ان اغانى جوته فى الحب ، انما تفجرت فورا من تجاربه الشخصية فى الحب . ولما كانت هذه التجاريب قد انتظمت حياته فى مختلف اسنانها واطوارها ، فان هذه الاغانى تعد سجلا عاطفيا من اغنى السجلات ، بما توالى على ناظمها فى احوال مختلفات من الاحاسيس والانفعالات ، يصاحبها ما يناسبها من الاصداء والنغمات .

وان بعض العناء نتكلفه فى رد كل مقطوعة الى تاريخ مولدها من الزمن ، ونسبتها الى صاحبة وحيها ، يعوضنا مزيدا من المتعة والفائدة. فنحن اذ ذاك نتعرف أغانى جوته الفتى الطالب فى جامعة ليبزج مشبوبة العاطفة بالشهوة الجارفة وكلها أو جلها ، فى « آن ـ أو ـ انيت » وأغانيه فى «فريدريكا» وقد تجاوز العشرين وهى اغان مستغرقة فى نشوة الهيام والحنين . فاذا ما بلغ جوته الخامسة والعشرين ظهر عشقه لمن أسماها « ليلى » عشق الرجل المجرب الواعى الذى يعرف مواضع السحر من عشقه ومن معشوقته . ثم يأتى حبه المثالى للبارونة « شارلوت فون شتاين » خلال عشر سنوات . ويليه عشق الجسد فى اطمئنانه واستمكانه فى أغانى « كرستيان » التى اتخذها فيما بعد زوجة حليلة . ثم نزعة الانطلاق الحيوية الوثنية فى « أشجانه الرومانية » . ولا يلبث بعدها أن يحين الاصيل بما فيه من سبحات الشوق وخطرات التفكير فى « ديوانه الشرقى » الذى أوحى غزله ما كان من تعلقه فى سن الخامسة والستين بماريان فون فيلمر . وأخيرا ماسوف نسمعه فى « مرثية مرينباد » من أنة التسليم الاليم على اثر غرام له غيرموفق بالصبية «أولريكه فون ليفيتسوف»

التى لم تبلغ العشرين وهو شيخ موقر بالسنين قد اربى على السبعين

وقد كان بودنا أن نجمع فى هذا الباب جميع ما قاله شاعرنا فى كل واحدة من عرائس شعره الموحيات هؤلاء ومثيلاتهن . ولكن المجال لم يعد يتسع لأكثر من البيت والبيتين عن كل واحدة منهن . فنحن لهذا قد آثرنا ان يكون ما نورده هنا مقطوعات كاملة من نظمه فى مرحلة بالذات ، ولواحدة بعينها من هذا الجمع الحاشد من الحبيبات المعبودات

ونحب ان نبدأ من حيث ابتدأ الشاعر .

فقـــد غادر شاعرنا فى سن السادســـة عشرة بلدته ومسقط راسه فرانكفورت فى صيف عام ١٧٦٥ ، الى ليبزج ليتلقى فى جامعتها ـ وهى جامعة المانيا الكبرى ـ دراسة القانون نزولا على ارادة أبيه . وكانت ليبزج ـ بالقياس الى فرانكفورت ـ مدينة حديثـــة تحيط بها الحدائق الفناء ، وأهلها اكثر اناقة واشبه فى اسلوب حياتهم بالفرنسيين . ثم هى ـ مثـل باريس وان كانت باريس صغيرة ـ مركز للأدب والثقافة والفنون . وقد حاول الفتى جوته أن يستبدل بدراسة القانون دراسة الادب اليـــونانى القديم ، فلم يقره القـــائم على أمره ، وأجبره على البقاء فى كلية الدراســـات القانونية . ولمـا كان الفتى غير متوجه بجوارحه كلها هذا الاتجاه الدراسى فقد مال الى غشيان المجتمع الادبى الحر ، وهو مجتمع يشتمل بطبيعة الحال على الكثيرين من الطلاب . ولم تكن حياة الطلاب كلهـا موقوفة على الدرس ، بل كان للهو فيها نصيب . وقد كان أن اتصـــل الطالب فيمن اتصل بهن بصبية جميلة مثقفة تكبره بثلاثة أعوام ، هى « آن كاترين شينكوبف Anna Katarina Schoenkopf

ابنة صاحب النزل الذى اتخذه جوته ولفيف من اترابه الطلاب مطعما ومشربا يختلفون اليه ٠

ومما جاء فى مذكرات جوته التى كتبها فى شيخوخته فى صفة « آن » أو « آنيت » على التصغير والتجميل ـ وهى المرموز اليها فى أغانيه باسم « نينانيت **Ninenitte** » ما يأتى :

« كانت « مرجريت » ـ فتاة فرانكفورت ـ هى حبى الاول ٠ ثم انتقل الحب الى « آنيت » فى ليبزج ، ولا يسعنى أن اذكر عنها الا انها كانت صبـــية وضيئة ، لطيفة الشمائل ، مشبوبة الحيوية ، مطبوعة على التعلق والحب ، كثيرة المرح »

وقد ترك الفتى فى أغانيه الاولى صورة لما عاناه من هجران مرجريت ، وكيف وجد راحة السلوان عنها فى حبه الجديد كما يظهر ذلك واضحا جليـــا فى مقطوعة « الانقاذ » :

« تنكرت لى حبيبتى وخانت عهدى فعافت نفسى من بعدها كل مسرة وأنس . وسعيت الى النهر ، جارف التيار سريع الانحدار ، وتدافع الماء وجرى نصب عينى

« وقفت هنا فى أشد اليأس ، ساهما واجما ، وكانت راسى فى اضطراب وتخليط كمن به خمار . وهممت أن القى بنفسى فى الماء وقد دارت بى الدنيا ودارت الارض من تحتى

« فاذا صرخة فى سمعى . وكانت الصرخة وراء ظهرى . صوت صغير الجرم رخيم : « حذار ، فالتيار هنا بعيـد القرار » عندها سرى ســـار فى عروقى عرقا عرقا . والتفت ٠٠ انها صبية مليحة ٠ فسألتها : ما اسمك ؟ »

قالت : « كاترين »

ـ يا كاترين الجميلة . انك طيبة القلب نبيلة . وقد

نجيتنى من الموت ، فأنا مدين لك آخر الدهر بحياتى ؛ ولكنك فى تخليص حياتى منحتنى القليل ، فكونى سعادة حياتى ان أردت تمام الجميل

« ثم حدثتها عما لقيت من شقاء ، فأسبلت جفونها فى استحياء . فقبلتها . فردت على قبلتى بمثلها .. ولم يكن حديث عن الانتحار منذ ذلك النهار »

***

ومسح الحب الجديد على قلب الفتى العميد ، وتفتح قلبه وانفسح أفقه ، وتعلم اخـــذ الحياة على علاتها . والرضى بما سنح من لذاتهـــا ، بعـــدما خبر ، من ان « التغيير » من صميم سننها :

« انبطحت على الرمل الناعم على شاطىء النهر الجارى . أتطلع الى الماء . ويالله من صفاء !.. ومددت الى الموجة الراجفة ذراعى ، فاندفعت مشـــتاقة مهتـــاجة الى صدرى المضطرم ، ولكنها تابعت سيرها يجذبها التيار الذى لا يقر له قرار .. عندئذ اقبلت غيرها تداعبنى بدورها ، وهكذا ذقت ما بين لحظة ولحظة ما فى الهوى المتجدد المتغير من نشوة ولذة

« فما بالك ؟ اتراك وقد نسيتك الحبيبة الهاجرة ، مضيعا فى الأسى أغلى السويعات فى هذه الحياة العابرة ؟ حسبك !.. اذكر تلك الايام الحلوة الماضية ، ولكن أذكر معها مذاق القبلة من فم الحبيبة الثانية ، فان قصارى قبلة الحبيبة الاولى أن تعدلها حلاوة »

***

وتوثقت الاسباب بين الفتى والفتاة وتمكنت بينهما الالفة ، فكان لا يصبر عن عشرتها ولا ينى يهيىء الفرصة بعد الفرصة لزيارتها ، ولا يطيب له من طيبات العيش غيرها . وعلى هذا واكثر من هذا تنم مقطوعة « الليلة الجميلة »

« غادرت الكوخ الصغير موئل حبيبتى ، ومضيت خافت الخطو فى الغابة المهجورة المظلمة ، والقمر يشع من خلل دوحات البلوط وشوابك الدغل . ورفيف النسائم يؤذن بمرورها ، فتحنى له أشجار السندر هامها وتبذل له أزكى بخورها

لشد ما أتملى حلاوة هذه الليلة الجميلة من ليالى الصيف . آه !.. ثم هذا السكون الضارب على المكان كيما تفرغ النفس لاستيعاب ما فيه نشوتها وسعادتها . ان متعة كهذه من وراء ما يتصوره الوهم ويلم به الخيال

بيد اننى وايم الله لأنزل طيب النفس عن الف ليلة كهذه بليلة وصل واحدة تجود لى بها الحبيبة »

***

على ان هذه النزعة الحسية فى العشق اخذت تلطف مع تقدم السن وازدياد تيقظ حسه الفنى لجمال الطبيعة واشتغاله المتعدد الجوانب بالفنون والعلوم

وقدظهرت بوادر هذا الاعتدال بعد سنوات فى أغانيه . وكان قد زايل ليبزج ، ولكن خيال «آنيت» لم يزايله . وظل ملازما له طويلا بعد عودته الى بلدته . والقارىء لأغنيته « نعمة البعاد » لا يخطىء الجانب الروحى فيها :

« ايها الفتى ، تزود نهارك من لحاظ حبيبتك الصبية . ولتشرب من عينيها حتى تسكر بنشوة روحية ، وليعمر لبك بها ، وتكتنفك بروعة سحرها . ولتكن أسعد العاشقين اجمعين . ولكن السعادة ـ السعادة الكبرى ـ لا تؤتاها الا وانت بعيد عن الحبيبة

هما قوتان ازليتان ، قوة المكان ، وقوة الزمان . لا يزالان يفعلان فعلهما الخفى فى دمى حتى يهدأ من فورة ، وفى عواطفى حتى ترق بعد عنف وثورة . فاذا الضائقة

تحف عن قلبى ، واذا السعادة تزداد وتربو على الايام

انى لأستمرىء اليوم طعـــامى . وان كنت لا ازال

اذكرها . وهذه نفسى منشرحة مطمئنة . ذلك ان نشوة

مخامرة قد احالت حبى عبادة ، واشواقى احلاما

وما سحابة لطيفة ترف فى نسمات الصبا تحت نور

الشمس الوهاج . باهنا اليوم من قلبى استرسالا الى

الطمانينة والابتهاج

كذا اصبحت طلق البال من هاجس القلق والخشية .

واصبحت نفسى القريرة أكبر من أن تستبد بها الغيرة .

وعلى هـــذا الحال من القرار والانسجام ، احبهـــا ،

وساحبها على الدوام »

***

والعجيب فى أمر هذه المقطوعات ، انها وان تكن من

نظم مرحلة بالذات ، وفى معشوقة واحدة من معشوقاته

الكثيرات ، تبـــدو اقرب ما تكون الى تمثيل خصائص

اغانيه كلها فى جمعها بين الجسد والروح ، والعـــاطفة

والفكرة

تجربة الحب الأخير

كان شيخ الشعراء الالمان « جوته » فى ذلك الحين ، قد بلغت به شيخوخته الى السبعين ، وأربى عليهـــا بسنين . ولقد يعد هذا ، وأقل من هذا ، أرذل العمر عند الكثيرين ، الا عند « جوته » شيخ الشعراء الالمان ، فقد كان موفور الحيوية مدخر العافية عامر البنيان . فهو ممتلىء البدن من غير بدانة ، معتدل القامة مرفوع الهامة ، لا تكاد تبين فى صفحة جبينه تغضينة واحدة ، وما برح شعره ـ وان جلله الشيب ـ وافرا أثيثا كسابق عهده ، لم يلم به الصلع . وما برحت لعينيه النجلاوين السوداوين خاصيتهما المميزة من السنا المتوقد والبريق الرائع . ولم تسلم للشيـــخ « جوته » صحة جوارحه وصلاح بدنه وما به حفظ حياته فحسب ، بل سلمت له كذلك حياة الحياة ، وروح روحها ، ونعنى بها «ملكة الحب » والاقبال عليه والاستجابة له

وكان من عادة الشيخ ان يتردد فى كل عام على حمامات كارلسباد باقليم بوهيميا للترويح والاستجمام ، ولكنه كان قد ملها من طول التردد عليها ، وصارت لا تجدى عليه جدواها. فعدل عام ١٨٢١ عن كارلسباد فى الجنوب الشرقى الى مارينباد فى الجنوب الغربى ، وهى وقتئذ المستراد الجديد للاستشفاء بحمامات عيونها الحارة التى كانت تروى عنها الخوارق والمعجزات

والمأثور عن « جوته » انه يؤثر اعتـزال النـاس ، والعكوف على مطالعاته وموضوعات درسه ، والانفراد والخلوة ـ ما استطاع ـ بنفسـه . وهـذا صحيح ، صحيح كل الصحة الا انه لا يصدق عليه طوال العام ، فهو على النقيض من ذلك فى فترة الاستجمام ، يسعى للاجتماع ومداخلة النـاس ، ويطلب الصحبة ودواعى الايناس ، وقد بلغ ذلك منه ان اثر عنه قوله لبعضهم : « لا يحق التردد على مدن الحمامات لمن لا يصطنع كل حيلة ، ويتخذ كل وسيلة ، للوقوع فى شرك الغانيات من روادها »

وقد كان .. فقد تعرض شـاعرنا الشيخ للغرام ، فوقعت فى قلبه منه سهام ، وكادت جراحها ترديه ، وتفجع من حوله فيه قبل الاوان

كان بين النازلين فى مارينباد صبية حسناء فى السابعة عشرة من عمرها ، تعيش مع ابيهـا وامهـا وجدتها ، واسمها « اولريكه فون ليفيتسوف **Ulrike von Levetzow** وكانت الاسرة من اهل كارلسباد فابتاعت منذ عهد قريب ـ بمعونة بعض الاصـدقاء ـ دارا لطيـفة للاستثمار فى مدينة الاستشفاء الجديدة. ولأجل التعجيل باستثمار هذا الموقع البديع جعلت الاسرة من الدار نزلا اثناء الموسم للوافدين من ابناء العلية المتوسطة على مارينباد . ومن



أولريكة فى الربيع العشرين
الحب الاخير للشاعر وهو فى الرابعة والسبعين

ثمة كانت حفاوة الاسرة بنزول « جوته » عندها ، وهو المستشار الخاص ووزير صاحب السمو الملكى الدوق العظيم لامارة « ساكس ويمر » ـ حفاوة بالغة فائقة . وكيف لا يكون ذلك كذلك ، وهو بسكناه فى النزل يخلع عليه من جاهه ونباهة قدره ويزيده فى أعين الناس رفعة وبهاء

وقد طاب « لجوته » المقام عند « آل ليفيتسوف » ، ولم يكن شىء يعدل عنده ابتسامة « اولريكه » . وكانت « اولريكه » أقل اخواتها اصطناعا للدلال والمعاكسة . واوفرهن رقة طباع وحلاوة شمائل . وكان فى جمالها استحياء وخفر كالزهرة افترت أكمامها ولم تبلغ غاية تفتحها . وكانت عيونها الزرق البنفسجية تختلس النظر من تحت غدائرها الداكنة الحريرية . ولقد كان يعوزها المراح والشخصية ، وتنقصها المفاتن الجاذبة اليه ، الا انها كانت مع ذلك تستلفت النظر بطلعتها القوية ، وجيدها الدقيق الاتلع ، وجسمها اللطيفة المسنونة الذى لم يستوف تكوينه وظهور تقاطيعه فى ثوبها الهفهاف الموصلى ، المكشوف الجيب عن نحرها فى قصد واحتشام . وكانت تميس فى مشيتها من لين الاعطاف وميعة الصبا فى غير تعمد ولا تكلف

وكان « جوته » يؤثر تناول الغداء مع صاحبات النزل ، ثم يعود فى المساء لتناول الشاى على مائدتهن . وكان فى اكثر الاوقات يطيل الجلوس معهن على شرفة الدار . فاذا كان يوم الاحد ، دعاهن للنزهة فى مركبة ؛ فكانت الجدة تستعفيه من قبول الدعوة معتذرة ـ ولعلها كانت مضطرة للبقاء لاعداد العشاء ـ أما مدام ليفيتسوف وبناتها فكن يقبلن الدعوة متهللات مبتهجات . وسرعان ما

يلقين على اكتافهن منديلا من الوشى المخرم «الدنتلا» . ويهرعن مع « جوته » الى المركبة التى فى انتظارهن . ويحرك الحوذى سوطه فتنطلق المركبة بهم رويدا . وثمة ترى لثياب النسوة الهفهافة تضغطها الزحمة فى المركبة ثنايا وتجاعيد شتى من مسترسلة ومنتفخة ، وترى الشرائط من المخمل تخفق على القبعات العريضة من الخوص

وتمضى المركبة يخب بها الجوادان من الجياد الكمت الى جوسق « كشك » من الجواسق الريفيـــة القائمة وسط اشجار الراتينج . وفى الطـــريق الى مقربة من العين الفوارة الجديدة حيث يخطر جيئة وذهابا اهل الاناقة فى الســترة القصيرة والسراويل البيض الطوال المشدودة الى اســفل النعال ، لا تتمالك صاحباتنـــا انفسهن من مداخلة الزهو والخيلاء وهن يعبرن فى مركبة « جوته » العظيم . و « جوته » فى الســـترة الطويلة «الردنجوت» مزرورة مزمومة عليه ، وقد نصب صدره ، وجعل يرد ـ فى احتفال ، وكلف ظاهر بالمراسم ـ على تحيات المصطافين . فاذا انتهت النزهـــة وعادت بهم المركبة ، رايت «جوته» يتقدم فى فراهة وترسل فائق ؛ مادا يده الصغيرة الى صواحبه ليساعدهن على النزول . وقد حنى راسه البيضاء كالثلج حفاوة وتأدبا

وظل « جوته » دائبا على الذهاب كل يوم الى طريق العين فى طلب « اولريكه » . وكان اذا منعتـــه رطوبة المساء من الهبوط واياها الى الحديقة ، جلس فى البهو يتحدث اليها حديث الأب العطوف . واتفق ذات مساء أن وقع لهـا الجزء الاول من كتـــابه « ســياحة ولهيم مايستر » ، وكان أول ظهوره وقتئذ ، فسألته فى شغف وحرص : « سيدى المستشار ، لست أحسن فهم هذه

القصة ، ولا بد أن شيئا تقدمها » . فأجاب الشيخ :
« اجل يا ابنتى . ولكنها أشياء لا يستطاع قراءتها لمن فى مثل سنك .. تعالى .. تعالى اجلسى الى جانبى فأقص عليك ذلك الجزء » . وأوجز لها « سنوات التلمذة » فى كلمات شائقة طلية

وتعاقب عامان اثنان وهو من نزلاء « آل ليفيتسوف»

وفى عام ١٨٢٣ أصيب جوته بأزمة حادة فى القلب كادت تكون القاضية . فعاد الى اقليم الاستشفاء ومعه فى هذه المرة امير ويمر ، وكانت عودته بعثا له من جديد . فقد كان الشيخ منطويا على حب مخامر لعــله لم يكن اول الامر يتمثله فى ظاهر وعيه . فاذا بهذا الحب يتفتح ، فتنتعش قوى الشيخ وتتجدد حياته . انه الهوى ، تلك العين التى ترد الشباب . وهذا هو يعكف عليها شربا ، ويعب فيها عبا . ولماذا ينسلخ عن الدنيا وينقطع عن الناس ؟ .. انه يتنسم هنا ربيع المغامرة وعطر الغرام فتطيب له النشوة ويستعذب السكرة ، ومن حـوله الامير ودوق لوشتنبرج ونبلاء العاصـمة النمسوية ، وكلهم منشرح الصدر ، باسم الثغر ، تحف بهم الحسان الفوانى الغيد . انه لم يكن قط خيرا منه اليوم حالا وأسعد بالا . انه طروب يغلب عليه المرح ، فهو يشهد المراقص ، ويرى فى قاعات الإستقبال وسترته مرصعة بالاوسمة ورباط عنقه العريض مشبوك بحجر ثمين منقوس من « الكاميه » . واذا كان وجهه لا يخلو فى هذه السن من بعض الاحمرار والتشقق فضلا عن شعره الاشيب ، فانه كان يبدو وافر الشبــاب فى مشيتــه المختالة الجليلة ، ونظرته الواثقة النبيلة ، بين الامراء ورجال الاقطار الاخرى ، وهم يبالغون فى توقيره

وعندما حل عيد ميلاده الرابع والسبعون ، دعتــه

الاوانس فقبل الدعوة وشارك فى الرقص.. فيالها قوة عجيبة على التجدد !

ولقد كان السر فى هذا الشباب المجدد حرارة الغرام ووقدته ، وكان هو واولريكه لا يدعان فرصة تمر دون اظهار التودد ومبادلة الهدايا والالطاف . ولقد اهدت اليه قدحا من الخزف الصينى ، فلم تنس ان تلفه باكليل من اللبلاب رمزا للارتباط والتعلق . كذلك حين اراد ان يوضح لها درس معادن الارض بنماذج من الحجارة الجبلية يرسلها اليها ، لم ينس أن يدس بينها قطعا متبلورة من الحلوى ومربعات عطرة من الشيكولاتة

اتراه يدرك الآن ان ما يعطفه نحو هذه الفتاة ليس بالعاطفة الابوية الخالصة ، وانما يخالطها ميل أقرب الى الهوى والصبابة ؟

أجل ، ولا ريب . ولكن عقله امسى ضعيف المراجعة والمعارضة. وأى بأس بالله فى ذلك؟.. انالمرء يجعل سنه حيث اراد طوع أمره ، ان شاء كان كهلا فى صباه ، وان شاء عاش على رغم الكهولة عيش الشباب

ولماذا لا يتزوج أولريكه ؟ ..

قد لا يكون من حقه أن يشكو الوحدة ، فهو يعيش فى ويمر مع زوجة ابنه وأحفاده . ولكن ، أين تلك البيئة العاصفة الصاخبة المضطربة بالمشاحنات بين الزوجين الشابين ، من هذه الطمأنينة والسكينة فى قرب اولريكه هنا فى مارينباد . ان الناس لاريب سوف يلغطون ويهتفون بالتناقض الغريب والفضيحة الصارخة. وكان عند هذا الخاطر يثور فىقرارة نفس الشاعر شيطانه القديم ، ويرفع صوته فى حنايا جوانحه محتجا مفندا دعوى المعارضين : ان العبقرية من حقها الاجتراء وتحدى الناس ..

وازمع الشيخ امره . ولكنه رأى من حسن التأتي الذى افاده من تجارب السن والوظيفة ان يضع مشروعه تحت رعاية سامية ، هى رعاية أمير ويمر نفسه . وقد تفضل الامير فأبلغ مدام ليفيتسوف فى أغسطس عام ١٨٢٣ رغبة مستشاره فى خطبة الفتاة ، وكان المستشار فى الرابعة والسبعين والفتاة لم تبلغ العشرين ربيعا

وبديهى ان الأمر كان لايخلو من غواية واغراء لشابة صغيرة خاملة . او ليست تصبح بزواجها من « جوته » المستشار صاحبة رتبة وحاملة لقب « المستشارة » ويكون لها فى بلاط ويمر شرف الاستقبال ؟

ولقد وعد الامير أن يهب الاسرة فى الحال دارا محترمة فى ويمر ، وأن يجعل للفتاة رزقا راتبا من رواتب القصر مدى الحياة فى حالة وفاة جوته المستشار

فلما ابلغوا الفتاة اولريكه ، أجابت فى لطف انها لا تعتزم الزواج ، وانها تحب الشاعر الكبير حبها لوالدها الشفيق ، وانه لو كان وحيدا لا أسرة له لما ترددت لحظة فى وقف نفسها على رعايته والعناية بشيخوخته ، ولكنه بين أسرة ولده . بيد ان مدام دى ليفيتسوف آثرت المصانعة والتلطف فالتمست لفتاتها مهلة للتروية والتفكير وانتهى الموسم عند هذا الجواب المراوغ ، وحانت ساعة التوديع ، ولكن « جوته » لم يجد فى مقدوره الانفصال عن الفتاة اولريكه . فلم يلبث أن لحق بها فى كارلسباد ، وقضى أياما ثمانية الى قربها . وأخيرا لم ير مندوحة من التسليم للقضاء وقطع الرجاء

وعاد الشاعر الشيخ الى ويمر . وفى الطريق الى ويمر ــ وكان ذلك فى آخر سبتمبر ــ تحركت عبقريته فى المركبة التى أقلته ، فكان من فيض قلبه الجريح تلك

القصيدة التى اسماها « مرثية مارينباد » وهى مزيج من الحب والحسرة . وقد روى لنا الشاعر نفسه خبر نظمها . قال : « فى الصباح الباكر فى أول موقف للمركبة كتبت مطلع القصيدة ، ثم مضيت انظم فى المركبة . واكتب ما نظمت فى موقف كل مرحلة من مراحل السفر . فما أتى المســاء حتى كانت القصــيدة تامة » . والى القارىء مطلع القصيدة :

« تحت شمس نظرتها الساطعة

« وأمام ربيع أنفاسها العاطرة

« تذوب – بعد طول جمودها فى مفاوز الشتاء –

« ثلوج الكهولة الموحشة المتوحدة »

ولما أن بلغ شاعرنا داره أعاد كتابة القصيدة كلهــا بيده ، مع التأنق فى الخط وتجويده ، على صفحة من الكاغد الابيض المصقول ، ثم أودعها بين دفتى اضبارة من الجلد المراكشى الاحمر

وكانت هـــذه الصفحة هى الخاتمة فى كتاب غرامه الكثير الصفحات

الوحدة فوق القمة

كان « جوته » منذ أن أخرج للعالم فى شبابه قصته الاولى « آلام فرتر » ، قد عرف الطريق الى الظهور والاشتهار ، فلم يرقد على ما فاز به من أكاليل الغار ، بل ضاعف الجد والجلد على العمل الدائب المتصل بغير ملال ولا كلل ، فى تحصيل المعـــارف الانســانية غربا وشرقا ، الى جانب تجاريبه العديدة الوجدانيــة ، وما صاحبهما من العكوف على التأليف ومواصــلة الانتاج طوال حياته المديدة . فلا غرو أن ارتقى فى معارج الشهرة العالمية والمجد الادبى حتى بلغ القمة التى ليس فوقها قمة . وهنا شاعت تسمية بعضهم له بالاولمبى ، نسبة الى جبل الاولمب الذى اشتهر عند اليونان بأنه مقــام الآلهة وعلى رأسهم « زوس » كبيرهم ــ المعروف باسم جوبيتر عند الرومان ــ المتربع فى جــلال على العرش الالهى

بيد ان هذه القمة الاولمبية التى ارتقى اليها وتربع عليها حكيم الالمان وشاعرهم « جوته » ، لم تكن على علوها بالقمة الثلجية الباردة التى يقول العقاد فى الترغيب عنها والنعى عليها مقطوعته المشهورة :

اذا ما ارتقيت رفيع الذرى فاياك والقمـــة البارده
هنالك لا الشـمس دوارة ولا الارض ناقصــة زائده
ولا الحادثات وأطوارها مجـددة الخلـق او بائده
قوالب يلتـذ تقليبــها اناس وتبصرها جامده
ويعجب قوم بترقيشها والوانها ابدا واحــده
وتعلو وتهبـط جدرانها واساس جدرانها قاعده
ويا بؤس فان يرى ما بدا من الكون بالنظرة الخالده
فذلك رب بلا قـدرة وحى له جثـة هامده
الى الفور!! اما ثلوج الذرى فلا خير فيهـا ولا فائده

***

هذه النصيحة سبق الى العمـل بها « جـوته » . وحسبنا لاقامة الدليل على ذلك ، أن نستعيد فى ذاكرتنا ما مرت بنا الاشارة اليه فى هذه الدراســة الموجزة ، لاهتمامات جوته الكثيرة الكبرى ، فى الجانب الواحد الذى قصرنا عليه كتابنا هذا « الشرق والاسلام فى أدب جوته » . ثم لنذكر فى اثر ذلك أن هذا الجانب ــ حتى لو توسعنا فيه أضعاف ما فعلنا ــ ان هو الا « لعقة من ماء الفرات بالاصبع » على حد قول الاخطل الشاعر ــ بالقياس الى جوانب اهتمامات جوته الاخرى

ولما كان المجال فى كتابنا لم يسمح لنا بالحديث بشىء من التفصيل عن جميع ما دفع بالشاعر الالمانى « الى الغور » حيث جحيم الانفعالات الوجدانية العنيفة القوية وسلسلة النوبات المتصلة الحلقات من العذاب الحسى

والنفس تتناوب عليه ، فاننا نستميح القراء العذر ، ونستمنحهم الاذن ، أن نستدرك ما فات ونأتى هنا على ثبت مختصر للفراميات التى انتظمت حياة جوته على حسب ترتيبها الزمنى ، مكتفين بما سجله الشاعر فى شعره دون غيره ، وان كان لا يبلغ من واقع تجاربه الفرامية اكثر من معشار عشره

كان من أوليات ما سجله جوته من الفراميات - على حد ما تقدم بنا ذكره - حبه فى سن الخامسة عشرة - عام ١٧٦٤ فى بلدته فرانكفورت - للفتاة « مرجريت واجنر » وهى من بلدة مجاورة ، ولكن سرعان ما كان السبب - عن غير قصد - فى اختفائها الى الأبد عن نظره وعن فرانكفورت ، فعاشت بعدها ذكرى اليمة فى نفسه . خلدها بعد سنوات طوال فى شخصية « مرجريت » فى مسرحيته العالمية الخالدة « فاوست »

ولما انتقل الفتى عام ١٧٦٥ الى ليبزج لدراسة القانون فى جامعتها لم يكف عن نظم الشعر ، فقد أولع هنا اشد الولع بالفتاة المثقفة « ان كاترين شينكوبف **Anna Katarina Schonkoph** وقد بلغ من اشتداد غيرته عليها أن ضاقت به وكرهت صحبته وآثرت فراقه . ولكن خيالها لم يفارقه ، وقد ألهمه الم فراقها الكثير من الشعر ، ولكنه كان أيضا السبب فى اضطرابه النفسى وانهيار صحته الى الحد الذى اقتضى عودته الى بلدته حيث طال المرض عليه

فلما استرد صحته سافر عام ١٧٧٠ الى ستراسبورج قرب نهر الراين لاستئناف دراسة القانون تحقيقا لرغبة والده . وفى قرية زيزنهايم المجاورة أعجب باحدى بنات القس بريون وهى « فريدريكه **Friederike Brion** التى كانت فى ربيعها الثامن عشر ، ولم يلبث الاعجاب أن تحول الى

الحب الشديد بكل ما فيه من اللوعة والعذاب ، وأثمرت هذه العلاقة « اغانى زيزنهايم » ، كما روى « جوته » فيما بعد حكاية حبهما فى جملة ما رواه فى كتابه « شعر وحقيقة » . بيد ان «جوته» ما كاد يتم دراسة القانون ويحصل على اجازته حتى ودع « فريدريكه » وعاد الى بلدته

وفى بلدته فرانكفورت تم قيده عام ١٧٧١ فى عداد المحامين ، ولكنه كان ابعد ما يكون عن العيش السعيد فى ظل هذا العمل الجديد ، فتركه على الرغم من سخط ابيه . واشتغل بالادب متجها هـــذه المرة الى الادب المسرحى . ولكن الاب لم يسلم بالهزيمة واليأس ، فعاد الى الضغط على ابنه وارســله فى مايو عام ١٧٧٢ الى مدينة « فتسلر **Wetslar** » للتـــدرب على المحاماة فى المحكمة الامبراطورية العليا ، ولكن تغيرت الاحوال فلم ينجح السعى. واشتغل الفتى بحب الفتاة المعروفة باسم « لوت **Lotte** » وهى «شارلوت بف **Charlotte Buff** » ابنة عمدة فى قرية مجاورة . ولكنه كان حبا بغير أمل، اذ كانت الفتاة مخطوبة . وقد خرج « جوته » من هذه العـــلاقة بقصـته « آلام فرتر **Werther** » التى نشرها عام ١٧٧٤ فراجت ايما رواج وطبقت شهرتها الآفاق

وفى فرانكفورت ، فى المدة من شتاء عام ١٧٧٤ الى ١٧٧٥ برزت علاقة « جوته » بالفتاة الفنية اللعوب ، « انا أليزابيث شونمان **Anna Elisabeth Schonemann**

وقد عانى الكثير من عبثها وقلة جدها ، وهى التى خلع عليها اسم « ليلى **Lili** » فى اشعاره واغانيه الشجية وكانت ليلى من أسرة غنية ، انيقة الهندام ، شـــقراء ذات عينين زرقاوين زرقة خفيفة ، دقيقة التقاطيـــع واضحة الجبين ، وبالجملة فاتنة ساحرة

ولكن الشاعر كان مترددا من ناحيتها ، لا يجد فى نفسه العزيمة على تذليل العقبات التى تعترض سبيله الى زواجها لعدم ارتياح اهلها . ولقد تقدم فعلا لخطبتها رسميا فى يوم عيد الفصح لسنة ١٧٧٥ ولكنه عاد يشك فى مدى التوفيق فى قران اثنين بينهما كل هذا الخلاف فى الطبع والمزاج . فعمد الى التلهى عنها بالسفر الى سويسرا ، ولكنه لم يملك أمام جمال الطبيعة هنا الا ان يذكرها ، وكيف لا يذكرها ولم يفارقه قط خيالها

وهذا هو فى هذه القصيدة « على البحيرة » سنة ١٧٧٥ ، يستنجد بجمال الطبيعة عليها :

« من هذه الدنيا الطليقة استمد زادا جديدا ، ودما جديدا

« ما اجمل الطبيعة التى تضمنى هـذه الضمة على صدرها . وما ارفقها !

« تهز اللجة زورقنا على ايقاع المجداف

« وتتوافد الى ملاقاتنا القمم الذاهبة فى الفضاء ، المعصبة بالسحاب

« فيم الاطراق يا عينى ؟

« ويا احلام الذكريات الزاهية ، فيم تعودينني ؟

« اليك عنى ، يا حلمى

« مهما يكن مجتلاك زاهيا . فها هنا ايضا الحب والحياة

« على اللجة يتألق لهب الشمس الطافى

« وهبوات الماء المتصاعدة اللينة تستغرق الآفاق البعيدة

« ونسمة الصباح تنفض اجنحتها على الخلجان الظليلة

« وفى العباب تتراءى المجانى المثمرة والحقول المترعرعة »

ولما كان امير ويمر « كارل اوجست » من اشد

المعجبين بصاحبنا « جوته » فقد زار فرانكفورت وهناه حين قابله على مسرحيته « جوتز Gotz von Berlichingen وقصته « فرتر » . ولكن الفتاة الفنية اللعوب كانت شغل « جوته » الشاغل حتى كان لا يكف فى شعره عن الشكوى من حبه الضائع . وحسبنا فى وصف حاله هذه المقطوعة المشهورة وعنوانها « لذة الالم » :

لا تفيضى من عيونى أبدا يادموع الحب يخلد سرمدا
ان عينا غاض منها ماؤها تبصر العالم قفرا فدفدا
انت للظامى الى الحب ندى ان تفيضى يهلك الظامى صدى
ويضع عمرى على الارض سدى

وكان من المحال بقاء هذا الحال من غير حل عاجل بات . وقد جاء هذا الحل حين تقلد الامير كارل اوجست مقاليد الحكم فى ويمر فى الثالث من سبتمبر عام ١٧٧٥ ، واحتفل فى الثالث من اكتوبر بزواجه من الاميرة لويزا التى كانت مثل زوجها اعجابا بالشاعر ، فاتفق العروسان على توجيـــه الدعوة اليه للاقامة الطـــويلة فى ويمر فى ضيافتهما ، ما طاب له المقام . فجاءهما رد « جوته » على الفور بقبول الدعوة شاكرا لهما هـــذا الامتنان . فأوفد اليه الدوق الشـــاب مندوبا من قبله لاصطحابه الى ويمار ، فبلغها فى فجر اليوم السابع من نوفمبر عام ١٧٧٥ ، فلم يلبث الدوق الشاب أن عين صديقه فى ١١ يونية عام ١٧٧٦ مستشارا للبلاط وضمه الى المجلس

وفى بلاط فيمار توثقت العلاقة بينه وبين زوجة أمين القصر « البارونة فون شتين Charlotte von Stein » وكانت تكبره بنحو سبع سنوات ، ولـــكنها كانت وافية الانوثة . وقد طالت صـــلة الحب بينهما عشر سنوات كانت فيها تدافعه تارة وتجاذبه أخرى حتى كانت نفسه تضيق أحيانا بهذه الحال فيتمنى الراحة ويهيب بالسماء

ان تهبط سكينته الى قلبه فلا تفارقه :

يا من اذا انحى على العانى البلاء
وسجا المساء حنت عليه من السماء
هبطت ببلسمها تداوى مهجة لم يبق منها حبها الا ذماء
انى بلوت الحب حتى ناء بى طول المطال وما لسعى من غناء
هذى مآسيه ، وذى افراحه فى كل حاليها ، عناء فى عناء
فاليك قلبى - ياسكينة - فاهبطى
لا تبرحيه ، ان هبطت مع المساء

ولا يمكن ان ننسى غرامه بالفتاة «كرستيان فيلبوس Christianne Vulpius » التى كانت عاملة فى مصنع للازهار الورقية ، فآواها ثمانى عشرة سنة رزقته فيها بالولد قبل ان يكتب كتاب زواجه بها . وهى التى أوحت اليه قصائد الفصول الاربعة وبعض الرسائل الرومانية ، كما أثبت شخصيتها فى قصته الكبيرة « ويلهم ميستر » باسم « تريزه » . وقد كانت فجيعته فيها حين ماتت فى سن الحادية والخمسين عظيمة ، فهى وان لم تكن تشاركه فى حياته الفكرية الا انها أمتعت حسه وأهنأت قلبه واقرت فى قربها نفسه

واخيرا فى الرابعة والستين كان حبه الكبير للفتاة الفنانة النمسوية « ماريان Marianne » التى أسماها فى الديوان الشرقى باسم « زليخا » . وكذلك الحال فيما كان من امر حبه الاخير وهو فى الرابعة والسبعين للفتاة « اولريكه Ulrike » التى لم تكن قد بلغت العشرين ربيعا من عمرها . وقد استوفينا الكلام عما كان بينه وبينهما فى فصل أفردناه لكل منهما

ونتوقف هنا وقد بلغنا آخر هذه الرحلة الغرامية الطويلة التى استعجل « جوته » أولى مراحلها فى الخامسة عشرة من عمره ، واستمر يجرى فى مضمارها

شوطا بعد شوط على اشواك احد من السيف ورمضاء احر من الجمر ، وهو فى كل مرحـلة يزداد عبؤه من السنين فينهض به ، حتى كانت تجربتـه الاخيـرة للحب فى سن الرابعة والسبعين ، فاصطدم بالرفض من اسرة المخطوبة وتعرض للسخرية من جانب اسرته .

هنا فى نهاية هذه المرحلة الغرامية الطويلة نتوقف هنيهة ، لا للتعجب من غرام الشيخ مع تأييدنا الرفض لفكرة هذا الزواج دون المشاركة فى السخر منه . فهذا الموضوع ، ونعنى به غرام الشيوخ ، لا جديد فيه . فقد كان وما يزال الموضـوع المفضل فى المهـازل لاستثارة الضحك الرخيص عند جماهير المسارح ، والاحق به - فى رأينا - أن يدرج بين الموضوعات الحية للمأساة الانسانية

اما الذى يستوجب منا الاهتمام له والكشف عنـه للقارىء فهو نوع الحب الذى كان يحبـه « جـوته » او بعبـارة اكثر صراحة : هل كانت الرغبة الجسدية مصاحبة للحب فى جميع هذه المراحل ؟..

ان الذى يسـتدل عليه من اشـعار « جوته » واخباره تقطع بالنفى فيما يتعلق « بشـارلوت بف » و « ليلى » ، و « البارونة فون شتين » فى السنوات الخمس الاولى ، والحورية النمسوية « ماريان فليمار » المرموز لها « بزليخا » ، والرأى المتفق عليه فى شأنهن أن حب « جوته » لهن - على الرغم من وقدته وطول مدته - قد خلا من الصلة الجسدية . وفيما عدا ذلك فان هنالك شبهة قوية فى ان العلاقة الفكرية الروحية التى كانت بينه وبين البارونة تطورت الى علاقة اتحد فيها الروح والجسد فى الخمس السنوات الاخيرة تحت تأثير مغايرته لها بموقفه من الشابة الحسناء الممثلة

المغنية الشهيرة « كورونا شريتر Korona Schröter » التى سافر الى ليبزج فى زيارة لها ليعود بها لاحياء مواسم تمثيلية غنائية يشتركان فيها على مسرح فيمار الذى كان « جوته » صاحب الاشراف عليه

ولا تبقى فى آخر الامر الا « كريستيان فولبيوس » والصلة الجسدية بينهما مؤكدة لا خفاء بها . وقد انتهى به الامر الى زواجها

ويخلص من هذا جميعه ان الغالب على «جوته» كان الحب اولا وآخرا ، وان عاطفة الحب عنده كانت تسمو احيانا فى طهارتها الى حد الشعور الدينى ، ومن ثمة كلمته المشهورة فى الجزء الثانى من فاوست : « الانوثة الخالدة تجتذبنا الى السماء »

ومهما يكن من الامر فان « جوته » بعد تلك التجربة الاخيرة للحب فى سن الرابعة والسبعين ، قد زهد فى المجتمعات ، ولزم بيته فى « ويمر » يستقبل فى الحين بعد الحين اصدقاءه المقربين ، وبعض الزوار النابهين

ولقد اتفق لشاعر المانيا الشاب « هنريك هينى Heinrich Heine الذى اشتهر فى شعره ونثره على السواء بصدق الملاحظة والملكة الساخرة والروح الحالمة ، انه زار للمرة الاولى « جوته » فى داره الصغيرة فى ويمر ، على اثر ما كان من خيبة امل الشيخ فى تجربة الحب الاخيرة ، فاذا « جوته » على الصورة التى وصفناها له — فى مستهل هذا الفصل — على مثال الاله الاولمبى فى جلاله وسكينته . فلقد راع الشاعر الشيخ زائره الفتى الشاعر من اول نظرة الى طلعته ، فكتب يصفه باسلوبه الشائق فى كتابه « المدرسة الرومانتيكية » :

« ان ملامح وجهه وسماته تبدو للناظر معبرة عن معان كثيرة مثل تلك الكلمات الحية فى سائر كتاباته .

ولقد بلغ شكله العام ، من الانسجام وحسن التقويم ووضوح المعالم وانبساط النفس ونبل الهيئة ، ان كان النظر اليه يغنيك فى دراسة الفن اليونانى عن دراسة تمثال يونانى . هذا القوام الرائع المهيب كتمثال وثنى . لم يخلق للسجود فى انكسار وخبوت مسيحى . وهاتان العينان لهما نظرة الاله الهادئة ، ومن علامات الأرباب ان تكون نظرتهما هكذا مستقرة ثابتة ، لا تتلفت حائرة فى كل جهة . كما ان عيون « جوته » ما برحت فى شيخوخته مثلها فى شبيبته ، صحيحة ومنيرة . ثم انه كان يبدو فوق طوله متعاليا متعاظما . فاذا تحدث زاد طولا وعظمة . واذا هو مد يده ، فكأنما يمدها ليوجه بها النجوم الى الجريان فى مداراتها فى الفلك الأعلى . ولقد زعم بعضهم انه لمح على فمه مسحة من الانانية الباردة . ولعل القائل من الصادقين ، فهذه أيضا من سمات الأرباب الخالدين ، ولا سيما رب الارباب

« والحق أقول ، اننى حين زرته فى « ويمر » ، ووجدتنى فى الواقع الحقيقى امامه وجها لوجه ، لم أملك نفسى عن التلفت يمنة ويسرة لعلى أرى فى جواره النسر المعروف بأنه طائره ـ طائر الاله جوبيتر ـ وأن فى منقاره ـ رهن أمر الاله الاولمبى ـ الرعود والبروق والصواعق ، لاعلان نقمته وغضبه على من شاء من الخلائق

« فلما هممت بالكلام ، لم يحضرنى منه فى حضرته ـ بالرغم من كل ما أعددته قبل زيارته ـ الا القول انى فى طريقى من ايينا الى ويمر ، وجدت ثمر الاجاص « البرقوق » لذيذ الطعم حقا . فابتسم « جوته » الاله ، ابتسم بتلك الشفاه نفسها التى لثم بها من قبل ،

شفاه اولئك الاميرات اللواتي قرات مرات بعد مرات ، وشفاه غيرهن من عامة النساء عنهن فى اساطير اليونان ، الحسان »

***

والان ، هذا « جوته » مع تعاقب الاعوام ، وتوالى فقدانه لاصدقاء عمره وأفراد أسرته وأولياء نعمته ، يزداد اعتزالا للناس ، وامعانا فى طلب الوحدة ، حتى صار لا يبرح حجرته او « جحر عناق الارض dachshohle كما كان يسميها تشبيها لنفسه بذلك الحيوان . ففى هذه الحجرة الصغيرة طال اعتكافه ، ليخلو طوال الوقت الى متابعة دراساته العالمية فى الشعر والادب والفن والقصص ، واستئناف اهتماماته بمختلف البحوث الجدية من علمية واثرية ولغوية ، وفوق ذلك اعادة النظر فى مؤلفاته واصدار طبعات جديدة لبعضها ، وانجاز الجديد من الانتاج مثل الجزء الثانى من فاوست الذى اتمه وهو فى الرمق الاخير من حياته وطبع بعد مماته

ومن عجيب الاتفاق ان « جوته » ، حين حل فى السادس والعشرين من اغسطس عام ١٨٣١ ، عيد ميلاده الثانى والثمانين خرج من عزلته فى حجرته ، واصطحب معه حفيديه فى زيارة لغابة عالية حبيبة اليه ، هى غابة « الميناو Ilmenau » على ربوة بالقرب من ويمر فى الجنوب الغربى منها. وقد تكلف شيخنا الصعود اليها مع الحفيدين الصغيرين ، ولم يكن المرتقى الى الغابة كبير العلو ، ولكن ارتقاءه على كل حال يعد من جلائل الاعمال عند شيخ فى الثانية والثمانين . وكان فى أعلى ذروة لمرتفعات الغابة كوخ صغير من الخشب ، فأخذ الشاعر بيد الحفيدين ليطلعهما على ابيات سطرها على خشب الحائط بالقلم

الرصاص منذ احدى وخمسين سنة . فما وقع نظره على اثر الابيـــات الذى لم يزل باقيا حتى راح يقرؤها عليهما ، ولكنه ما كاد يبلغ البيت الاخير حتى اغرورقت عيناه بالدموع وجعل يردده مرة بعد اخرى وقد تخافت صوته . وهذه الابيات تعد فى لغتها الالمانية ابدع ما نظمه شاعر المانى . وقد لحنها احد اعلام الموسيقى وبخاصة الاغانى وهو « فرانز شوبير **Franz Schubert** وهذه هى المقطوعة :

هـــذى اعالى الروابى ســـادت عليها السكينه
والدوح لا حس فيـــه للريح ، تثنى غصـــونه
والطير بعـــد اصطخاب فى الغـــاب ، كف لحونه
يا نفس ، انت وشـــيكا بمثـــل ذاك رهينـــه

ولم تمض على هـــذه الوقفة المؤثرة أشهر معدودات حتى اشتملت السكينة على النفس الرهينة

فى أعقاب الشتاء ، فى الخامس عشر من مارس عام ١٨٣٢ ، نزلت بالشاعر الشيخ نازلة أشار اليها فى اليوم التالى فى دفتر يومياته : « ألزمنى المرض الفراش طوال اليوم » . ثم طرأ عليه تحسن ظاهر

ولكنه فى العشرين من مارس أصابته النكسة فجأة ، والمت به الحمى فأقضت مضجعه ، حتى كان كالطريد لايستقر فى موضع ، فهو يتنقل فى قلق عصبى شـــديد بين الفراش والكرسى الطـــويل ، لايطمئن جنبـــه الى المضجع . وقد هاج به الم شديد فى الصدر من عقابيل ما كان يصيبـــه على اثر كل أزمة نفسيـــة من النزف الرئوى ، ثم بلغ الالم من شدة الوطأة ان كان ينتزع منه الانين المتصل ، والصراخ العالى ، وقد تقبضت ملامحه ، وانطفأ لونه وغارت عينـــاه فى محجريهما ، فهرع اليه

الطبيب بانواع الدواء المسكن . وفى عقب ذلك استغرق المريض فى سبات النوم على كرسيه .

وقـد ظهرت على المريض اعراض التحسن فى اليوم التالى

وفى صباح اليوم الثانى والعشرين تناول القليل من الفطور فى فراشه. ثم طلب سكرتيره ، وبمعاونته والخادم نهض حتى وقف قريبا من كرسيه وسأل :

- اى ايام الشهر اليوم ؟

- اليوم الثانى والعشرون يا صاحب السعادة

- انه مقـدم الربيع اذن . لعـل فى مقدمه ايذانا بشفائنا

واستوى المريض على الكرسى الذى كان الى جانب الفراش ، وكانت تفشاه فى الحين بعد الحين نوبات من السبات متقطعة ، وقد سمع يقول فى احدى هـذه النوبات كمن تعاوده ذكرى من الذكريات : « الا ترون طلعة هذه المراة الحسناء ؟ » . « هذا الشعر ما أجمل خصله السود . لون وجهها زاهر ، من خلفه ظل قاتم »

واعقب ذلك أن تنبه من نوبة السبات، وكانت النوافذ مغلقة فأشار الى القائمين حوله : « افتحوا النوافذ ، اريد مزيدا من النور .. المزيد من النور » . ثم اعتقل لسانه وأعياه التعبير، فجعل يكتب بأصبع يده اليمنى فى الهواء ، ثم أخذت يده تتهاوى حتى استقرت الى جانبه ، واسترخى جسمه على الكرسى ، وفاضت روحه ..

وكانت منيته فى مثل سـاعة ولادته ، فى منتصف اليوم ورائعة النهار

وقد مات كما عاش ، متعلق القلب والعقل بالمعرفة والجمال



الشاعر على سرير الموت
وعلى رأسه اكليل الغار

الخاتمة

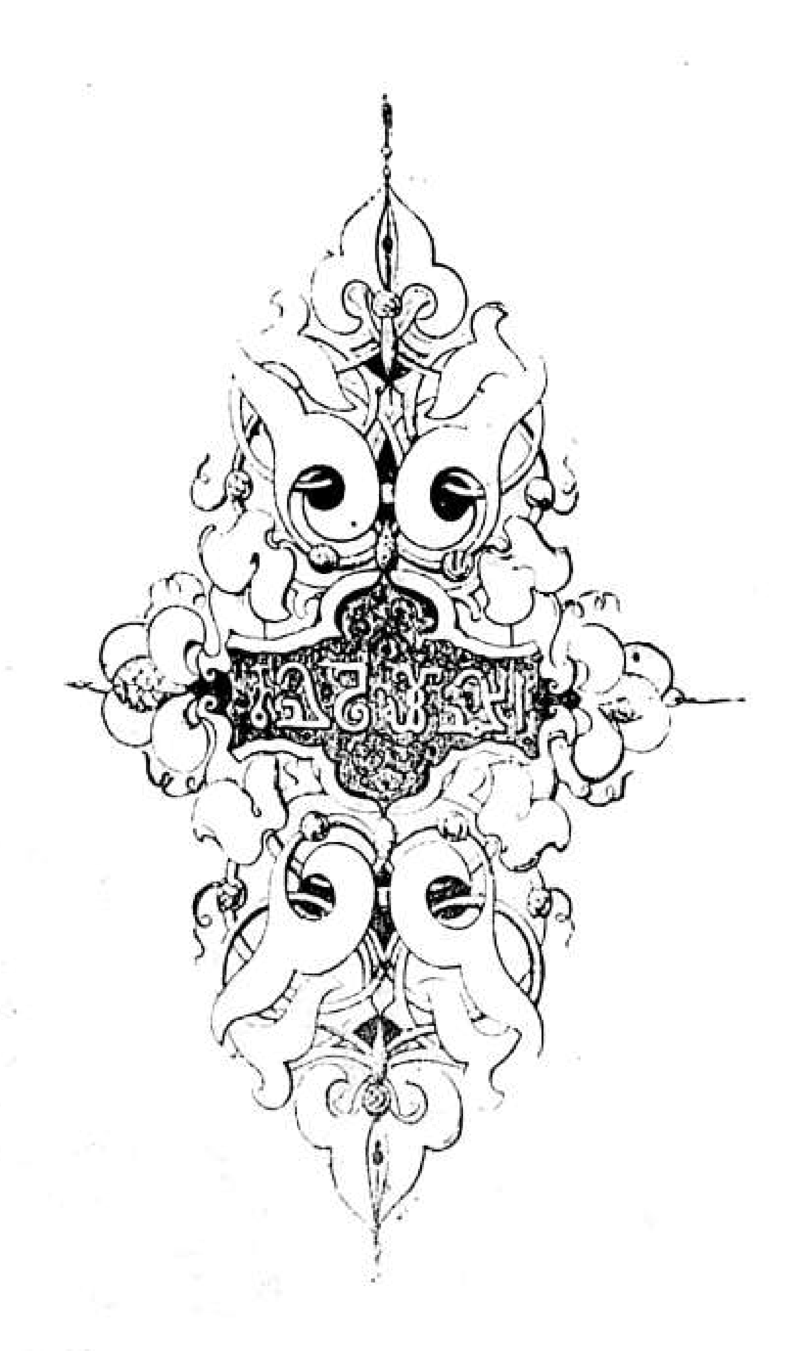
لا أرى خاتمة لهذا الكتاب ، أبلغ من هذه المقطوعة التى يعبر فيها الشاعر الالمانى « جوته » عن أمله فى دخول الجنة « جنة المسلمين » جزاء جهاده .

والقراء لا محالة يذكرون ، محاولة الشـــاعر طوال سنى حياته المديدة الخصبة ، اظهار الخلق اجمعين على محاسن الشرق وما جاء به الاسلام من الحق .

وهذه المقطوعة تصور الشاعر على باب الجنة يحاور حورية من حورها ملتمسا لنفسه الرخصة فى دخولها :

الحورية : اليوم أنا الموكلة بباب النعيم ، ولا أدرى ما العمل وأنت عنـــدى ظنين ، أتراك حقا من معشر المسلمين ؟ .. وهل استحققت دخول الجنة على جهادك ؟ أحقا أنت من المجاهدين ؟ فاكشف اذن عن جراحك ، لتشـــهد جراحك بما قدمت من المـــآثر ان كنت من الصادقين . فانى لأحب لك الدخول

الشاعر « جوته » : فيم هذه المراسم كلها . دعينى ادخل الجنة على كل حال . لقد عشت رجلا ، أى اننى كنت من المجاهدين . ألا حددى طرفك ، وأمعنى النظر فى فؤادى ، اشـــهدى ما به من جراح الحياة المؤلمة ، اشهدى ما به من جراح الحب المستعذبة . ومع هـــذا فما برحت مؤمنا أتغنى بوفاء حبيبتى الهاجرة ، وبمودة الدنيا الدائرة وقضائها فى الآخرة حق المحسنين . لقد عملت مع صفوة العاملين ، وجاهدت مع خيرة المجاهدين ، وتألق اسمى ـ بحروف مشـــبوبة الانوار ـ فى قلوب الصالحين الابرار .



فهرس



هذا الكتاب

حصاد سنوات من الدراسة الادبية المستفيضة ، لحضارة الشرق والاسلام ، وتأثيرها فى ادب من قمم الادب العالمى ، يجتمع فيه الادب والعلم والحكمة والشعر ، وهو ((جوته)) كبير ادباء الالمان وشاعرهم الاعظم . ولما كان هذا الكتاب قد فاز بجائزة الدولة فنكتفى هنا بايراد بعض ماذكرته لجنة الجائزة فى تقريرها عنه :

هذا الكتاب صورة للشرق والاسلام فى أدب جوته وهى صورة تتدرج متصاعدة فى رسم اثر الشرق والاسلام ، فتأخذ متابعته الاولى على حسب ترتيبها التاريخى ، وتقف عند تفاعل الأثر الاسلامى ، وتصله بأثر الشرق الاقصى ، حتى اذا تميز الاثر وتبلور ، رسمته ورسمت دوره فى تلوين شخصية ذلك الشاعر الغربى العالمى ، وأثر ذلك فى انتاجه حتى يصل به الى تأليف ديوان خاص اسماه ((الديوان الشرقى))

والمؤلف يرسم الصورة بريشة الشاعر ثم هو لا يكتفى بأسلوبه الشعرى الجزل الذى يدل على حبه للشاعر بقدر حبه للشرق والاسلام ، بل يستعين فى الصورة بالمختارات التى ترجمها هنا وهناك للدلالة على ما أراد بيانه من هذا الاثر والتأثر بالشرق والاسلام عند شاعر الالمان . ويتجلى ذوق المؤلف فى اختيار هذه المختارات كما يتجلى فى ترجمتها ترجمة ممتازة

والصورة تمتاز فوق هذا كله بأنها تدل فى الوقت نفسه على شخصية الشاعر الغربى دلالة كاملة وتصورحياته كلها فى مختلف مراحلها من خلال هذه الزاوية الحبيبة الى قراء العربية

١٠ قروش